حسن عبد الله

الاغتيالات في الإسلام

إغتيال الصحابة والتابعين

مؤسسة الانتشار العربي

حسن عبدالله

الاغتيالات في الإسلام
اغتيال الصحابة والتابعين

مؤسسة الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

الاغتيالات في الإسلام

اغتيال الصحابة والتابعين

حسن عبدالله

الانتشار العربي
ص.ب. 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: ٦٥٩١٤٨-٩٦١١ فاكس: ٦٥٩١٥٠-٩٦١١

ISBN 9953-476-67-5

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

الفهرس

مقدمة ٧

محاولات اغتيال الرسول ٩

من قتل أبا بكر الصدّيق ٢٠

من قتل الخليفة عمر وكيف ٣٢

اغتيال عثمان بن عفان ٤٧

اغتيال الإمام علي بن أبي طالب ٦١

اغتيال الحسن بن علي ٧٦

اغتيال الزبير بن العوام ٨٢

اغتيال طلحة بن عبيدالله ٨٩

اغتيال محمد بن أبي بكر ٩٥

اغتيال محمد بن مسلمة ٩٩

اغتيال الأشتر ١٠٢

اغتيال مروان بن الحكم ١٠٤

اغتيال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ١٠٨

اغتيال عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ١١١
اغتيال الإمام أبي حنيفة ١١٨
اغتيال النسائي ١٢٥
اغتيال أم ورقة الشهيدة ١٢٨
اغتيال عبد الرحمن بن عُديس ١٢٩
اغتيال الجرّاح بن عبدالله ١٣٠
اغتيال الجعد بن درهم ١٣١
اغتيال خارجة بن حذافة ١٣٢
اغتيال عمرو بن عتبة ١٣٣
اغتيال عبدالله بن قرط ١٣٥
اغتيال مسلم بن عقيل ١٣٦
اغتيال الضحاك بن قيس القرشي الفهري ١٤٠
اغتيال عمر بن سعد ١٤٤

مقدمة

منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها والإنسان لا يكف عن الصراع مع أخيه الإنسان. فالصراع والتنافس سُنّة من سنن الله في كونه، وقانون أنشأه الله لكي تستمر الحياة على الأرض ولكي يرقى الإنسان في مدارج الحضارة وهو ما عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره﴾[1]، ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[2].

فهذا «التدافع» سُنَّة من سنن الله في خلقه، قد يحقق أغراضه ولا يتجاوز حدود التنافس، وقد يتحول إلى صراع مرير بين بني البشر، تسيل فيه الدماء، وتزهق فيه الأرواح، وتفنى فيه الحضارات، وتنتشر البغضاء والعداوة والأحقاد، فالأهواء والقوى الخفية، منذ قابيل وهابيل تعمل في نفوس الناس عملها. فقابيل قتل أخاه هابيل بسبب الصراع على امرأة، ولأن الله تقبَّل قربان أخيه ولم يتقبل قربانه.

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

ولأن المسلمين ناس من الناس، وتسري عليهم قوانين الله في كونه. فلم يُستثنوا من قانون «التدافع»، بل وتحوّل «دفع الله بينهم» إلى صراع مرير، تداخلت فيه الأهواء والمصالح الشخصية مع العصبية القبلية، مع التعصب الديني وتعرض قادة الإسلام ورجالاته لمحاولات اغتيال، راح بعضهم ضحيتها، وتفجرت بسببها عصبيات وجاهليات وسقطت دول وقامت أخرى.

وطالت يد الاغتيال الخلفاء الراشدين الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكبار الصحابة أمثال طلحة بن عبيدالله، والزبير ابن العوام، وغيرهما من التابعين أمثال عمر بن عبد العزيز وغيره.

بل إن يد الاغتيال حاولت النيل من رسول هذه الأمة فقد تعرض النبي صلوات الله وسلامه لأكثر من محاولة اغتيال، ولكن نجّاه الله منها وعصمه كي تنتشر دعوة الإسلام وتصل إلى أرجاء المعمورة. وسنتوقف قليلاً أمام محاولات اغتيال الرسول لأنها تقدم صورة وخريطة كاملة لأعداء الإسلام الذين سعوا بكل الوسائل إلى هدمه والنيل من رجالاته الذين قاموا بأعباء الدعوة إليه وتحملوا في سبيل ذلك الكثير.

محاولات اغتيال الرسول

أولى هذ المحاولات وقعت لما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فأرادوا التخلص من النبي قبل خروجه لأصحابه فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلاّ فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه.

ولما اجتمعوا لذلك، وكان ذلك اليوم يسمى (يوم الرحمة)، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بت[1]، فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي تواعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون.

قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والحارث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار:

(١) البت من الطيالسة يسمّى الساج، مربع غليظ لونه أخضر.

النضر بن الحارث، ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب وحكيم بن حزام. ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج، ومن بني جمح أمية بن خلف. ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش.

وبدأوا ينسجون خيوط المؤامرة فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل - رسول الله - قد كان أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً، فتشاوروا، ثم قال قائل فيهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم. ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا، فوالله ما نبالي أين ذهب. ولا حيث وقع، فإذا غاب وفرغنا منه، أصلحنا أمرنا.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي. ألم تروا حُسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟

فوالله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. انظروا في رأي غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً[١] نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل[٢]، فعقلناه لهم.

فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا أرى غيره.

فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون عليه. فأتى جبريل رسول الله فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه. فلما رأى رسول الله مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نَمْ على فراشي وتسجَّ[٣] ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم.

وكان رسول الله ينام في برده ذلك إذا نام.

(١) جليداً: قوياً.

(٢) العقل: الدية.

(٣) تسجّى: تغطّى تماماً.

فلما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان الأردُنّ. وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم؛ ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها!

وخرج عليهم رسول الله فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم.

وأخذ الله تعالى على أبصارهم منه، فلا يرونه، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات ﴿يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم - إلى قوله تعالى - فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[(١)] حتى فرغ رسول الله من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلاّ وقد وقع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً...! قال: خيَّبكم الله! قد - والله - خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلاّ وقد علا رأسه تراباً، وانطلق لحاجته... أفما ترون ما بكم؟! فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا ينظرون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله فيقولون: والله إن محمداً نائم، وعليه بُرده!

فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا.

(١) سورة يس، الآيات:١-٩.

أما المحاولة الثانية لاغتيال رسول الله فكانت عندما خرج من مكة إلى المدينة، ورصدت قريش مكافأة مائة ناقة لمن يأتهم به - حياً أو ميتاً - يقول سراقة بن مالك بن جعشم فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا عليّ آنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه. فأومأت إليه بعيني: أن اسكت. ثم قلت لهم: إنهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم. فقال صاحبي: لعله! ثم سكت.

ثم مكثت قليلاً، فقمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي وسلاحي، وأخذت قداحي[1] التي أستقسم بها، فخرج السهم الذي أكره (لا يضره). وكنت أرجو أن أرد محمداً على قريش، فآخذ المائة ناقة. فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتد بي، عَثُرَ بي، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره: (لا يضره)، فأبيت إلاّ أن أتبعه، فركبت في أثره، فبينما فرسي يشتد بي عَثُر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار. فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر، فناديت القوم، فقلت: أنا سراقة بن جعشم، انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فقال رسول الله لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ فقال ذلك أبو بكر. قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية ما بيني وبينك. فقال: اكتب له يا أبا بكر.

وأسلم سراقة يومئذٍ.

(١) القداح سهام لا نصل لها، مكتوب على أحدها: افعل، والثاني لا تفعل، وليس على الثالث شيء.

وأما ثالث محاولات اغتيال الرسول فكانت على أيدي اليهود.

يقول ابن اسحاق في السيرة: ثم خرج رسول الله إلى بني النضير(١) يستعينهم في دية هذين القتيلين من بني عامر، اللذين قتلهما عمرو ابن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله قد عقد لهما. وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف: فلما أتاهم رسول الله يستعينهم في دية القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه.

ورسول الله إلى جنب جدار بيوتهم قاعد.

ثم قالوا: فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فاختاروا لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله في نفر من أصحابه، فيهم: أبو بكر وعمر وعليّ.

فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما خرج أصحاب النبي في طلبه بعدما شعروا بغيابه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة. فسألوا عنه: فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به. وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم والاستعداد للسير إليهم. وقد تم إجلاؤهم عن ديارهم بعد حصار دام ست ليال. ونزل في ذلك قول الله تعالى:

---

(١) حي من أحياء اليهود بالمدينة.

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾(١).

والمحاولة الرابعة قام بها عمير بن وهب الجمحي، وكان من شياطين العرب، واستمر بالغدر والفتك والصعلكة. وكانت محاولته سبباً في هدايته في إسلامه وإيمانه.

يقول موسى بن عقبة في (المغازي) عن ابن شهاب: لما رجع كل المشركين إلى مكة - بعد غزوة بدر الكبرى - فأقبل عمير بن وهب حتى جلس إلى صفوان بن أمية في حجر اسماعيل عند الكعبة المشرفة فقال صفوان: قبّح الله العيش بعد قتلى بدر. قال عمير: أجل والله ما في العيش خير بعدهم. ولولا دين عَلَيَّ لا أجد له قضاء، وعيال أدع لهم شيئاً لرحلت إلى محمد فقتلته إن ملأت عَيْنَيَ منه، فإن لي عنده علة(٢) أعتل بها عليه، أقول: قدمت من أجل ابني هذا الأسير.

ففرح صفوان وقال له: عليّ دَيْنك، وعيالك أسوة عيالي من النفقة لا يسعني شيء فأعجز عنهم. فاتفقا، واشترى له صفوان ركوباً وجهزه. وأمر بسيف عمير فصقل وسُمَّ.

---

(١) سورة الحشر، الآيتان: ٢-٣.

(٢) علة: أي حجة وسبباً.

وقال عمير لصفوان: اكتم خبري أياماً.

وقدم عمير إلى المدينة، فنزل بباب المسجد، وعقل راحلته، وأخذ السيف، وعمد إلى رسول الله، فنظر إليه عمر وهو في نفر من الأنصار، فدخل مسرعاً إلى رسول الله: فقال: يا رسول الله لا تأمنه على شيء.

فقال: أدخله عليَّ.

فخرج عمر، فأمر أصحابه أن يدخلوا إلى رسول الله ويحترسوا من عمير. وأقبل عمر وعمير حتى دخلا على رسول الله، ومع عمير سيفه - وفي رواية أن عمر قد أدخله على رسول الله، وقد أوثقه بحمالة سيفه، فقال رسول الله: أرسله يا عمر، ادن يا عمير - فلما دنا عمير قال: أنعموا صباحاً (وهي تحية الجاهلية) فقال رسول الله: قد أكرمنا الله تعالى عن تحيتك، وجعل تحيتنا تحية أهل الجنة وهو السلام: فقال عمير: إن عهدنا بها لحديث. فقال النبي: ما أقدمك يا عمير؟ قال: قدمت على أسيري عندكم، تفادونا في أسرانا، فإنكم العشيرة والأهل.

فقال: وما بال السيف في عنقك؟ فقال قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟! إنما نسيته في عنقي حين نزلت. فقال رسول الله: اصدقني. ما أقدمك يا عمير؟ قال عمير: ما قدمت إلاّ في طلب أسيري. قال محمد: فماذا شرطت لصفوان في الحجر؟

ففزع عمير واتسعت عيناه وقال: ماذا شرطت عليه؟!

فقال صلى الله عليه وسلم: تحملت له بقتلي على أن يعول أولادك ويقضي دينك، والله تعالى حائل بينك وبين ذلك.

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وأشهد أن لا إله إلاّ الله. كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر، ولم يطلع عليه أحد، فأخبرك الله به، فالحمد لله الذي ساقني هذا المساق!

ففرح به المسلمون، وقال له رسول الله اجلس يا عمير، نُواسِكَ وقال لأصحابه: علِّموا أخاكم القرآن، وأطلقوا له أسيره.

فقال عمير: ايذن لي يا رسول الله، فألحق بقريش، فأدعوهم إلى الله وإلى الرسول، لعل الله أن يهديهم.

فأذن له، فلحق بمكة وراح صفوان يقول لقريش - أثناء غياب عمير في المدينة - أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر.

وجعل يسأل كل راكب قدم من المدينة: هل كان بها حدث؟ حتى قدم عليهم رجل فقال لهم: قد أسلم عمير فلعنه المشركون، وقال صفوان: لله علي أن لا أكلمه أبداً، ولا أنفعه بشيء.

ثم قدم عمير، فدعاهم إلى الإسلام. ونصحهم بجهده. فأسلم بسببه بشر كثير.

وجاءت محاولة اغتيال الرسول الخامسة على يد اليهود بالسم هذه المرة. فقد حاصر رسول الله أهل خيبر في حصنيهم (الوطيح) و(السلالم) حتى أيقنوا بالهلكة فسألوه أن يسيرهم، وأن يحقن لهم دماءهم.

وكان رسول الله قد حاز الأموال كلها: (الشق) و(نطاة) و(الكتيبة) وجميع حصونهم، إلاّ ما كان من هذين الحصنين! فلما

سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله يسألونه أن يسيرهم[(١)] وأن يحقن دماءهم، ويتركوا له الأموال، ففعل. وكان فيمن مشى بين رسول الله وبينهم في ذلك[(٢)] محيصة ابن مسعود، أخو بني حارثة.

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم في الأموال على النصف. قالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها.

فصالحهم رسول الله على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم فصالحه أهل فدك على ذلك. فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

فلما اطمأن رسول الله أهدت له زينب بنت الحارث - زوجة سلام بن مشكم - شاة مشوية، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله فقيل لها الذراع. فأكثرت فيها من السم، ثم سَمَّت سائر الشاة وجاءت بها، فلاك منها رسول الله مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله. فأما بشر فقد أساغها وابتلعها، وأما رسول الله فلفظها ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. ثم دعا بها - أي باليهودية - فاعترفت. فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فَسيُخَبر!

(١) أي يتركهم يرحلون.

(٢) أي قام بالتفاوض.

وقد تضاربت الروايات، بعضها يقول إن الرسول عفا عنها، والبعض الآخر يؤكد أنها قتلت بمؤامرتها لأن بشراً مات من أكلته التي أكل.

أما محاولة اغتيال الرسول السادسة فكانت يوم غزوة ذات الرقاع، عندما أقبل رجل من بني محارب يقال له (غورث) قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمداً؟

قالوا: بلى، وكيف تقتله؟!

قال: أفتك به.

فأقبل إلى رسول الله وهو جالس، وسيف رسول الله في حجره - وفي رواية قد علقه مع قميصه في غصن شجرة - فقال: يا محمد، انظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم. وكان محلى بفضة. فأخذه غورث، فاستلّه، ثم جعل يهزه ويهم، فيكبته الله..

ثم قال: يا محمد، أما تخافني؟!

قال: لا. وما أخاف منك؟!

قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟

قال النبي: لا، يمنعني الله منك.

ثم عمد إلى سيف رسول الله فرده عليه.

وقيل بأن قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذْ هَمّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(١) نزلت لهذا السبب.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١.

من قتل أبا بكر الصدّيق؟

«إن لله جنوداً من عسل» جملة قالها عمرو بن العاص وتعبر عن مدى انتشار وضع السم في العسل واستخدامه كوسيلة للاغتيال. فقد قُتل أبو بكر الصدّيق والأشتر النخعي وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد والحسن بن علي وعمر بن عبد العزيز وغيرهم بالسم. وكان ذلك طبقاً لمؤامرة واضحة، ذات أهداف سياسية.

فأبو بكر الصديق - الرجل الذي لم تكن له خصومات شخصية مع أحد - تولى الخلافة بعد وفاة رسول الله. وكانت الخريطة السياسية في المدينة قد تبلورت بوضوح كالآتي:

١- التيار التقليدي الأرستقراطي، وهو في أساس تكوينه عبارة عن تحالفات مصلحية من كبار التجار والأغنياء وأصحاب الأموال، الذين سيطروا على الاقتصاد المكي قبيل الإسلام. وكان أبو سفيان واجهة هذا التحالف، وممثل الأرستقراطية المهزومة من قريش وثقيف. وقد استطاع بما لديه من خبرة واسعة، أن ينجح في ركوب الموجة وأن يتسلل إلى مواقع السلطة بعد وقت غير بعيد.

٢- التيار الاجتماعي القوي الذي يجسد النزعة الجماعية في الإسلام وهو تيار يتمسك بالأفكار والقيم الإسلامية النقية، والممثلة

من حيث المصالح بالفئات الشعبية والمحدودة الدخل، وهي المستفيدة من المجتمع الجديد، حيث تحسنت أوضاعها المعيشية والاجتماعية بشكل جذري. وكان الممثل لهذا التيار بصورة عفوية علي بن أبي طالب. وهو مع أبي بكر رائد النخبة المناضلة تحت لواء الدين الجديد، والشخصية التي اجتمعت فيها مثالية المبدأ مع الشدة في الممارسة. ولقد ضمّ هذا التكتل إضافة إلى علي وأسرته الهاشمية مجموعة كانت مقربة من الرسول، واحتلت مكانها المرتفع في تاريخ الدعوة الإسلامية من أمثال: سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن عمرو بالإضافة إلى الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وغيرهما. وكان لهذه الفئة وهذا التيار ثقل معنوي وإيماني في المدينة، وفي التأثير على التطورات السياسية/ في ذلك الحين. ولنا أن نعرف حجم هذا التيار وما يمثله، من خلال الإمكانات التي توفرت له من أجل التحرك وقياد زمام الأمور في الإسلام. وهذه المكانة لم تخف على تكتل الأرستقراطيين - ومعظمهم أسلم بعد الفتح أو أثنائه - الذي لجأ أولاً إلى تأييده لاعتقاده أن الورقة الرابحة في يده.

٢- تكتل الوسط: الذي يضم شخصيات قيادية (أبو بكر وعمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح) ساهمت بأدوار مؤثرة من نضالات الدعوة الإسلامية، خاصة أبا بكر الذي يعد من أسبق السباقين إلى الإسلام. وكان عمر الشريان الرئيسي لهذا التكتل الذي بقي إلى هذا الحجم منه إلى التيار، وإليه يعود الفضل في استرداد المبادرة من جماعة الأنصار وترشيح أبي بكر للخلافة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التكتل وهو في الحكم، اتجه بصورة عفوية نحو التيار الاجتماعي. فتمازجت أفكارهما في إطار هدف مشترك ورؤية سياسية موحدة.

هذه هي الخريطة السياسية في المدينة عشية وفاة الرسول ولم يكن بين أفراد تياراتها صراعات سياسية أفضت إلى أي محاولات للتصفية الجسدية والاغتيال. بل إن معارضة المعارضين كانت تدور كلها في إطار هدف الشرعية، والتعاون مع خليفة المسلمين الجديد.

ولكن هناك حدثين بارزين في خلافة أبي بكر الصديق القصيرة التي لم تمتد سوى سنتين وأشهراً، وهما الردة، والفتوحات الإسلامية خارج الإطار الجغرافي لشبه الجزيرة العربية.

يقول الذهبي في «تاريخ الإسلام» لما اشتهرت وفاة النبي بالنواحي، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام ومنعوا الزكاة، وظهر المتنبئون[١]، فأعلن مسيلمة نبوته في اليمامة، وجعل يهذي بكلام زعم أنه كان يوحى إليه، وجعل يقول: لنا نصف الأرض ولقريش نصفها. ولكن قريشاً قوم يظلمون.

وظهر التنبؤ في اليمن، فثار الأسود العنسي وأعلن نبوته، وركبه شيطان السجع كما ركب مسيلمة. وظهر تنبؤ آخر في بني أسد، فأعلن طليحة أنه نبي وجعل يهذي لقومه كما هذى صاحباه بالسجع، يزعم أنه يتنزل عليه من السماء.

---

(١) المتنبئون: الذين أعلنوا أنهم أنبياء.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تنبأت امرأة من بني تميم - وهي سجاح - كانت نازلة في بني تغلب، فلما استأثر بها شيطان السجع أسرعت إلى قومها من تميم فأغوت منهم خلقاً كثيراً.

ونظر الصديق من حوله فإذا الأرض قد عادت كافرة بعد إسلامها، واشتعلت فيها نار ما أسرع ما انتشر لهبها حتى شمل جزيرة العرب كلها. وحُصر الإسلام في المدينة ومكة والطائف. فنهض أبو بكر الصديق لقتالهم. فأشار عليه عمر وغيره أن يفتر عن قتالهم. فقال: والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدنها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلاّ بحقها وحسابه على الله» فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال وقد قال: «إلا بحقها»، فقال عمر: فوالله ما هو إلاّ أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

وخرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار حتى بلغ نقعاً حذاء نجد، وهربت الأعراب بذراريهم، فكلم الناس أبا بكر، وقالوا له: إنك لا تصنع بالمسير بنفسك شيئاً، ولا تدري لمن تقصد، فأمِّر من تثق به وارجع إلى المدينة، فإنك تركت بها النفاق يغلي، فجعل خالداً أميراً على الناس، وأمَّر على الأنصار خاصة ثابت بن قيس بن شماس، وأمر خالداً أن يصمد لطليحة الأسدي.

وتقول عائشة: لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلاّ طار أبي بحظها من الإسلام.

وخرجت جيوش الإسلام لقتال المرتدين. ولكن الأنصار الذين كانوا في جيش أسامة بن زيد الذي أمرّه رسول الله على الجيش، طلبوا من خليفة المسلمين أبي بكر أن يولي عليهم قائداً آخر أسن من أسامة، وأرسلوا عمر ليكلم أبا بكر في ذلك، فلم يكد عمر يفضي إليه بما رغب الأنصار فيه حتى قال أبو بكر «ثكلتك أمك يا ابن الخطاب يوليه رسول الله وأعزله أنا؟!»

فرجع عمر إلى الأنصار برد أبي بكر عليه، فلم يزيدوا على أن سمعوا وأطاعوا. وآن لأسامة أن يخرج بجيشه، فخرج أبو بكر مشيعاً له يمشي وأسامة راكب. ثم أوصاه أن ينفذ أمر رسول الله لا ينقص منه شيئاً، ونهاه ونهى من معه من الجند عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، والذين فرغوا أنفسهم لعبادة الله من القسس والرهبان، وعن الفساد في الأرض. واستأذن أسامة في أن يستبقي عمر بالمدينة يستعين به على أمره.

ورجع أبو بكر إلى المدينة يدبر أمره وأمر المسلمين إن أغار الأعراب عليهم. فأمر الرجال أن يظلوا مجتمعين في المسجد مستعدين للفزع إن طرأ عليهم طارئ، وحذّرهم من الغارة عليهم في أي لحظة، ومن أن يؤخذوا على غرة، ثم جعل على منافذ المدينة إلى البادية رجالاً من أصحاب رسول الله فيهم علي، وكلّف هؤلاء

الرجال أن يكونوا كالربيئة[1] يحرسون المدينة وينبئون أبا بكر بمن يمكن أن يطرأ عليهم من الأعراب.

وهكذا اندلعت الردة والحروب في كل مكان بعد وفاة الرسول. حتى أن الأعراب من غطفان بعدما علموا بخروج أسامة وجنده إلى مشارف الشام، طمعوا في أن يغيروا على المدينة دون أن يلقوا أحداً، لأن كل جيوش الإسلام كانت قد خرجت لقتال المرتدين، فأقبلوا ذات ليلة يريدون أن يبيتوا المسلمين. وأحس رقباء أبي بكر بمقدمهم، فأرسلوا من أنبأه، فخرج أبو بكر فيمن معه من المسلمين حتى لقوا العدو، فهزموهم.

هكذا كانت الصورة في عهد أبي بكر الصديق. والملاحظ هنا أنه لم نسمع عن وجود مؤثر لليهود في المدينة ومن حولها. ولم تذكر كتب التاريخ علاقات تذكر بين المسلمين واليهود بعد وفاة رسول الله. وبالرغم من هذا فإن الروايات تتحدث - رواها الذهبي - عن أن اليهود هم الذين وضعوا السم للصديق.

روى الذهبي في «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» «أن اليهود وضعت السم لأبي بكر الصديق في أُرُزَّة - أي الأرز، فمات بعد سنة، وعمره ٦٣ سنة.

لكن هذا الخبر لا يمكن أن نطمئن إليه، لأنه كما قلنا لم يكن لليهود علاقات أو وجود مؤثر مع المسلمين في عهد الصديق. فقد أجلى الرسول معظم اليهود من المدينة فهاجر بعضهم إلى الشام،

(١) الربيئة: الرقباء.

واستقر البعض الآخر عند أطراف المدينة، وخرجوا من حلبة أي صراع سياسي مع المسلمين بعدما فقدوا تأثيرهم الاقتصادي، وانفكت تحالفاتهم مع القبائل العربية بعد هزائمهم المنكرة أمام المسلمين.

لكن الأمر له علاقة مؤكدة بالمرتدين والمنافقين الذين كانوا يخالطون المسلمين ويؤاكلونهم.

فبعد انتصار خالد بن الوليد على المرتدين من بني تميم وطليحة ومالك بن نويرة ومن معهما.

وبعد انتصار عكرمة بن أبي جهل على مسيلمة الكذاب باليمامة.

وانتصار المهاجر بن أبي أمية على أتباع الأسود العنسي وعلى المرتدين من كندة.

وانتصار خالد بن سعيد بن العاص على القبائل العربية على مشارف الشام، وكذا هزيمة قضاعة على يد عمرو بن العاص وغيرها من قبائل وفلول المرتدين. بعد هذا كله:

سمح الصديق للمرتدين بعد عودتهم إلى الإسلام بمخالطة المسلمين، ودخول المدينة. وكان أبو بكر خير قدوة للمسلمين لما أظهر لهم من ثبات الجأش، وضبط النفس، والثقة المطلقة بالله والوفاء العميق لرسوله. فلم ينتقم الصديق من المرتدين بعد توبتهم، ولم يأمر المسلمين بالحذر منهم، بل عادوا إلى حظيرة الإسلام وكأن شيئاً لم يكن.

لكنه - كخليفة للمسلمين - لم يأذن للعائدين عن ردتهم بالمشاركة في الفتوحات الإسلامية، عقوبة لهم من جهة، وإشفاقاً منهم من جهة ثانية، ولبيان أن الإسلام ينتصر بدونهم - غيّر عمر هذا الحكم بعد ذلك وسمح لهم بالمشاركة في جيوش الإسلام - وهو ما أثر في نفوس البعض منهم، وظل يحملها للخليفة، بل ويكيد له حتى وفاته.

وكان خليفة رسول الله قد منع استعمال أهل بدر كأمراء وولاة معللاً: «إني أرى مكانهم، ولكني أكره أن تدنسهم الدنيا».

لكن هذا الموقف لم يؤثر في أهل بدر واعتبروها «مكرمة» من خليفة رسول الله، فهم لم يكونوا أهل دنيا، وكانوا يعلمون مكانة الصديق في الإسلام.

وتبقى أطراف المؤامرة محصورة بين التائبين عن الردة والمنافقين الذين انتشروا يعملون بالمدينة، تفريقاً وفتنة، حتى أن السيدة عائشة وصفت الأوضاع الداخلية في المدينة بأنها كانت «تغلي بالنفاق والمنافقين».

كان الصديق يقيم (بالسُّنخ) خارج المدينة من أعلاها في بيت اتخذه من الشعر، فلما استخلف ظل في هذا البيت ستة أشهر، يهبط إلى المدينة كل يوم، فينظر في أمور الناس ويقيم لهم الصلاة، فإذا أمسى عاد إلى أهله. وكان الصدِّيق يخالط الناس ويتواضع لهم ويسعى في أعمالهم إلى حد أن ابن سعد يروي، أن أبا بكر كان قبل وفاة النبي يحلب للحي الذي كان يقيم فيه (بالسُّنخ) من

الأنصار إبلهم وغنمهم، فلما استخلف سمع جارية تقول الآن لا تحلب لنا منائحنا[1]، فقال الصديق - وهو خليفة المسلمين -: لا والله لأحلبن لكم، وإني لأرجو الا يغيِّرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله من قبل.

وظل على حاله - يحلب الإبل والأغنام - للأنصار حتى ترك السَّنخ، ونزل إلى داره التي كان النبي أقطعه اياها في المدينة، فأقام فيها حتى قبض. وقد حمل مغزله - بعد استخلافه وخرج ليبيع ويشتري في السوق، لكن المسلمين منعوه، وفرضوا له مبلغاً يقوته ويقوت أهله.

من الطبيعي - إذن - أن يقبل الصديق - الخليفة المتواضع - أي دعوة لوليمة أي من المسلمين. فقد قُدِّمت لخليفة رسول الله هدية عبارة عن خزيرة[2]، فجلس ليأكلها هو وطبيب العرب الشهيد الحارث بن كلدة.

ومد يده ليأكل فصرخ الحارث: ارفع يدك يا خليفة رسول الله وإن فيها لسم سنة، وأنا وأنت نموت في يوم واحد.

فرفع الصديق يده، لكن بعض لقيمات كانت قد وصلت جوفه فمرض بشدة ولزم الفراش. وجلست حوله امرأته أسماء بنت عميس وابنتاه أسماء وعائشة وابنه عبد الرحمن فقالوا: الا ندعو لك الطبيب؟ فقال أبو بكر: قد رآني. فنظر عبد الرحمن إلى أخته

(١) المنائح: الدواب المخصصة للحلب.
(٢) لحم يقطع قطعاً صغيرة ويصب عليه ماء حتى إذا نضج ذُرّ عليه دقيق.

أسماء وكأنه يسألها متى جاء؟ ومن بعث إليه؟ أسماء بنت عميس؟ عائشة؟ ثم قالوا: فأي شيء قال لك؟ فقال خليفة رسول الله: قال إني فعال لما أريد.

ثم نظر الصديق إلى السماء وقال: والله لوددت أني كنت شجرة إلى جنب الطريق فمر علي بعير فأخذني فأدخلني فاه فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعراً ولم أكن بشراً.

ولما ثقل المرض على خليفة رسول الله جاءته ابنته أم المؤمنين عائشة، فلما رأت أباها قد حضرته الوفاة فتمثلت بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فنظر الصديق إليها كالغضبان وقال معاتباً: ليس كذلك يا أم المؤمنين ولكن ﴿جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾[1].

ولما استشعر أبو بكر دنو أجله أراد أن يعين خليفة من بعده، حتى يجنب المسلمين ما عساه أن يحدث من فتنة واضطراب، وكان عزمه معقوداً على استخلاف ابن الخطاب، فجعله يصلي بالناس، ثم بعث أبو بكر ليستشير كبار الصحابة، فأجمعوا على عمر بن الخطاب.. فكتب عهده باستخلافه.

واشتد الألم بخليفة رسول الله وأحس بدنو أجله فقال لمن حوله: إذا أنا مت وفرغتم من جهازي فاحملوني حتى تقفوا بباب

(١) سورة ق، الآية: ١٩.

البيت الذي فيه قبر النبي، فقفوا بالباب وقولوا: السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن فإن أذن لكم بأن فُتح الباب - وكان الباب مغلقاً بقفل - فأدخلوني وادفنوني، وإن لم يفتح الباب فأخرجوني إلى البقيع وادفنوني به.

وقال أبو بكر لابنته عائشة: إنا ولّينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهماً، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وأنه لم يبق من فيء[1] المسلمين قليل ولا كثير إلاّ هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح[2] وهذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر.

ثم نظر إلى السماء وملأ البشر وجهه وهو يقول: توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

وصعدت روح الصديق إلى بارئها فحملوه - بعد تجهيزه - إلى البيت الذي فيه قبر رسول الله وقالوا: السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن. وتقول بعض الروايات فسقط القفل وانفتح الباب وكأنما يسري صوت هاتف:

- أدخلوا الحبيب إليّ فإن الحبيب إلى الحبيب مشتاق.

ودفن في بيت ابنته عائشة، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وكانت وفاته لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ١٢هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

---

(١) الفيء: الخراج والغنيمة.

(٢) الناضح: الذي يحمل الماء.

فقد ردّ الصديق الجزيرة العربية إلى الإسلام، ووحّد كلمة العرب، كعهدها أيام النبي وأبلت جيوشه في قمع الردة أحسن البلاء وأعظمه، وتوفي بعد أن رمى بهؤلاء المسلمين ملك الفرس، فاقتطع منه العراق العربي، ولو قد مد الله له في الحياة شهراً أو شهرين لمات مطمئناً إلى أن جيوشه في الشام قد هزمت جيوش قيصر، وفتحت منافذ الشام للمسلمين ينساحون منها إلى أرض الشام كلها، فيستبرئونها من الروم ويستخلصونها للمسلمين.

من قتل الخليفة عمر وكيف؟

أُتي أمـيـر المؤمنين عـمـر بن الخطاب بكنوز كـسـرى، فـقـال عبدالله بن الأرقم: أتجعلها في بيت المال حتى تقسمها؟ فقال عمر: لا والله لا آويها إلى سقف حتى أمضيها. فوضعها في وسط المسجد وباتوا يحرسونها، فلما أصبح كشف عنها فرأى من الحمراء والبيضاء[1] ما يكاد يتلألأ، فبكى فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور!

فقال الفاروق: ويحك إن هذا - أي الكنوز - لم يعطه قوم إلاّ ألقيت بينهم العداوة والبغضاء».

وكأن عمر يتنبأ بما سيحدث له على يد أصحاب هذه الكنوز من فارس وقوادهم وجنودهم.

نشأ الفاروق كغيره من أطفال قريش، إلاّ أن أباه اهتم بتعليمه القراءة والكتابة، فلما شب الغلام عمر كان واحداً من سبعة عشر يتقنون القراءة والكتابة من مكة كلها. وأقبل الغلام على كل ما يقع عليه من كتب، فحفظ الشعر وأيام العرب، وأنسابهم، وأعد نفسه ليملأ رأسه بكل معارف عصره، وهو ما جعله من أكبر مثقفي

(١) الحمراء والبيضاء: الذهب والفضة والأحجار الكريمة.

عصره، وصاحب رؤية لها اعتبارها. وكان يتمتع ببعد نظر حتى أنه بكى بشدة، وبين يديه أسورة كسرى وكنوزه التي بشَّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يعلم طبائع الناس ووسوسة الذهب والفضة.

بلغ عمر أشده واستوى، فآتاه الله بسطة من الجسم، فأصبح فتى أبيض الوجه مشرباً بالحمرة، حسن المحيا، طويلاً قد فاق الناس طولاً حتى كأنه على دابة! فأقبل على تعلم الفروسية والمصارعة حتى أتقنهما، فكان يمسك أذن الفرس بيد، والأذن الأخرى بيده الأخرى. ثم يثب على الفرس حتى يقعد عليه بين إعجاب الشباب من قريش وينطلق به الفرس يسبق كل من يسابقه، ولقد تفوق في المصارعة حتى صرع كل من صارعه.

وشجعه أبوه على هذا التفوق، فقد كان أبوه شيخاً لقبيلة صغيرة اسمها بنو عديّ، وكانت القبيلة تعاني من قلة العدد، ومن الضعف، حتى لقد استضعفها بنو عبد شمس، فأجلوها عن مواقعها أسفل جبل الصفا، فآواها العاص شيخ بني سهم ووالد عمرو، وأسكنها في مساكنهم، وكان العاص كثير المال.

اشتغل عمر بالتجارة - كما يشتغل غيره، ولكنه كان صارماً شديداً، يكاد لا يبتسم، فلم تؤهله تلك الصفات للكسب، ولكنه ربح من التجارة ما هو أنفع له من المال.. ما انتفع هو به، وما نفع به الناس من بعد: كسب معرفة طبائع البشر، وكسب معارف جديدة من البلاد التي زارها للتجارة، إذ إنه لم يكتف برحلة الشتاء أو رحلة الصيف، كإيلاف قريش إلى اليمن والشام، ولكنه تعود أن

يسافر إلى بلاد الفرس والروم، وهناك تعلم الكثير من فنون الحكمة، كما لم يتح لأحد غيره ممن تشغلهم التجارة وحدها، وقد أهّلته هذه المعرفة مع حسن بيانه، وطلاقة لسانه، لأن يكون سفيراً لقريش، فهو عالم بالتاريخ وبأنساب العرب، مطّلع على حكمة الشعوب الأخرى، حرّي بأن يفاخر عن قريش، وأن يحاور سائر أمراء العرب، بما يملأ عقله من حكمة، وبما ثقف روحه من حنكة.

وهو على الرغم من شدته فيما يؤمن بأنه حق، رقيق المشاعر، يطرب للجمال، ويهزه الشعر الجيد فيتغنى به، وكان حسن الصوت. وحين أصبح خليفة قابل النابغة الجعدي فاستنشده بعض شعره، فلما سمعه قال عمر له: إنه غنّى هذا الشعر في شبابه وهو يرعى جمال أبيه الخطاب.

وقد تولى عمر بن الخطاب خلافة المسلمين بعد وفاة الصدِّيق رضي الله عنهما فقام بإصلاحات عظيمة من حكمه الذي دام عشر سنين وأشهراً، فالفاروق أول من اتخذ القضاة، ووضع أسس القضاء النظامي، وأول من سنَّ قيام رمضان في جماعة، وأن تضاء المساجد في رمضان وأول من عاقب على الهجاء، وأول من جلد في الخمر ثمانين جلدة، وأول من أخذ زكاة الخيل، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز. وهو الذي وضع الدواوين التي تدرب المسلمون فيها على الكتابة الإنشائية، وانتقلت اللغة العربية بها من البداوة إلى الحضارة، وهو الذي أخرج الجاليات الأجنبية إلى بلادها الأصلية لتبقى بلاد العرب شعباً واحداً وديناً واحداً، لأنها مهد الإسلام فيجب أن تكون

خالصة له حتى لا تؤثر فيها الخلافات الدينية وحتى لا تقضي على وحدتها. وأسقط الفاروق الجزية عن نصارى العرب، ومنع العرب من الهجرة من بلادهم إلى ما فتحوه من البلاد، لتبقى بلاد العرب عامرة بهم، ولا يتفرقوا في غيرها من البلاد، فيفنوا في غيرهم من الشعوب، ويأكلهم الترف كما أكل غيرهم من الأمم.

وكان لهذا النجاح الذي أدركه عمر في خلافته أثره في نفوس الشعوب التي فتح بلادها، وقضى على دولها وممالكها، فكانت قلوبها تغلي حقداً عليه، ويكاد الغيظ منه يأكلها أكلاً. وكان من هؤلاء الذين هدّت جيوش الإسلام بقيادة الفاروق عروشهم، دولة الفرس والأكاسرة. فكانت المؤامرة كاملة هذه المرة، وأصابع المتآمرين فيها واضحة، تلعب على المكشوف.

وسنرى هنا أبعاد المؤامرة بين الفرس واليهود - وربما البعض الآخر - لاغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

كان رستم القائد الفارسي بطلاً أسطورياً عند قومه، وحتى عند عدوه من العرب، وكان محارباً يجمع قوة البأس، وسعة الحيلة والجسارة، ولكن العرب هزموه آخر الأمر. قال رستم بعد إحدى المعارك التي فرّ فيها من أمام العرب حين باغتوه بفنون من الحرب والشجاعة، لم يكن يتوقعها من قوم فقراء ألِفَ الفرس أن يسودوهم.. قال رستم: «إنه هو عمر بن الخطاب الذي يكلم الكلاب فيعلمها العقل[1].. أكل عمر كبدي، أحرق الله كبده!» ثم قتل رستم

(١) يعني بالكلاب العرب.

في المعركة، قتله رجل من غمار الناس، وعاش حقد الفرس على عمر!

قال الهرمزان القائد الفارسي وهو يستنهض ملك الفرس لمعركة فاصلة يكسر بها العرب: «إن محمداً لم يهددنا، وما هددنا أبو بكر، ولكن عمر يضربنا في بيت ملكنا، ويفتح بلادنا عنوة!» ثم أسر الهرمزان، وجيء به إلى المدينة، ثم أسلم. ولم ينس لعمر أنه ثلَّ عرش الأكاسرة، واستولى على دولة الفرس، وأذل كبرياء عظمائهم.

وبعد غزوة نهاوند، نظر أبو لؤلؤة المجوسي إلى الأسرى والسبايا من عظماء الفرس، وبنات ملوكها وأمرائها، فبكى قومه. ومضى يربت على رؤوس الولدان من بني وطنه. ويهمس بصرخة رستم: «أحرق عمر كبدي، أحرق الله كبده!»

لم يكره الفرس أحداً كما كرهوا عمر بن الخطاب، فلم يكسرهم أحد في كل تاريخهم كما كسرهم عمر، حتى لقد أوطأ خيله محاريب دولتهم وعروشهم!

ولم يخطئه صدق شعوره بأضغانهم وأحقادهم على العرب، فلم يأذن بدخول المدينة لبالغ منهم، إلاّ للذين أسلموا وحسُن إسلامهم، حتى كتب له المغيرة بن شعبة عامله على الكوفة يذكر له شاباً منهم، اتخذه غلاماً، ويستأذنه في دخول هذا الشاب، ويدعم استئذانه بزعمه أن هذا الشاب صانع ماهر سينتفع بمهارته أهل المدينة، قال المغيرة: «إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، فهو حداد ونجار ونقاش».

فأذن له عمر.. فما كان عمر يحظر على غير المسلمين إطلاقاً دخــول المدينة، ولكن حظر ذلك على من بلغ الحلم من الفــرس وحدهم، لأنهم كانوا مجوساً يشركون بالله ويعبدون النار، وكانوا قد ألفوا منذ الجاهلية الاستعلاء على العرب، فلما فتح العرب بلادهم، امتلأت قلوبهم حقداً على العرب! وما كان عمر يحرم دخول المدينة على الروم، أو القبط، فهم نصارى أهل كتاب.

وقد تعلم عمر من القرآن أن أقرب الناس مودة للمسلمين هم النصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون[1].

وقد روى غلام عمر الرومي النصراني: كنت عبداً مملوكاً لعمر بن الخطاب، وكان يقول لي: أسلم، فإن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فأبيت، فقال لي عمر: لا إكراه في الدين! وظل يرعاني ويكرمني.

ولما قدم المغيرة بغلامه المجوسي أبي لؤلؤة، جعل عليه ضريبة شهرية مقابل ما يكسبه من أعمال كثيرة مربحة، فهو صانع ماهر: حداد، نجار، نقاش. وأبو لؤلؤة كغيره من الفرس لا ينسى لعمر يوم أنهى دولتهم إلى آخر الزمان. كان ذلك يوم حالف كسرى يزدجر ملك الترك وملك التتار، وساروا جميعاً إلى المسلمين، فهزمهم المسلمون، فتخلى عن كسرى من كان يرجو النصر منه، فلم يدر أين يذهب! وانتهى به الأمر إلى الاستنجاد بملك الصين، فجعل ملك الصين يسأل رسول كسرى عن هؤلاء المسلمين، ورسول كسرى

(١) انظر الآية ٨٢ من سورة المائدة.

يحدثه عن تفانيهم في الحرب، وإقدامهم على الموت طمعاً في الجنة، فكتب ملك الصين إلى كسرى: «إن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو جئت لنصرك أزالوني ما داموا على ما وصف رسولك فسالمهم، وارض منهم بالمسالمة..!»

وظلت نار الحقد تضطرم في نفوس الفرس، وزكاها بعض اليهود الذين أعلنوا - في الظاهر - إسلامهم. واجتمع كل أطراف المؤامرة على خليفة المسلمين عمر بن الخطاب!

خطب عمر بن الخطاب في الناس فقال: «الحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر جنده، ألا وإن الله قد أهلك ملك المجوسية، وفرّق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضير بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم ديارهم وأموالهم وأبناءهم، لينظر كيف تعملون، فقوموا في أمره على وجل، يُوفِ لكم بعهده، ويؤتكم وعده، لا تغيروا يستبدل قوماً غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلاّ من قبلكم!»

سمع الهرمزان هذه الكلمات، وصكّت أذنيه، ومزقت، وأحرقت كبده! كما أثارت حقد أبي لؤلؤة المجوسي على عمر! كان أبو لؤلؤة يبكي كلما رأى سبايا قومه بعد فتح نهاوند، وكان عظماء الفرس الذين أصبحوا عبيداً للعرب قد يئسوا من استرداد دولتهم، بعد أن تخطف القهر والضياع ملكهم المهزوم يزدجرد، ولكن ما يئسوا قط من الانتقام.

وفي سنة ٢٣ من الهجرة خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومعه نساء النبي حاجّاً، فلما نفر من منى، كوّم كومة، فألقى عليها طرف ردائه، ثم جثا لركبتيه، ودعا الله جاثياً «اللهم كبرت سني،

وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مُفرِّط». وعاد إلى مدينة رسول الله.

وخرج أمير المؤمنين عمر - كان طويلاً أصلع أعسر أيسر (يعمل بيديه) وكان لطوله وكأنه راكب، تعلوه حمرة، أشيب يصفر لحيته ويرجِّل رأسه - يوماً إلى السوق فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة، فقال: - يا أمير المؤمنين أعدني[1] على المغيرة بن شعبة فإن عليّ خراجاً كثيراً. فتساءل الفاروق: وكم خراجك؟ قال أبو لؤلؤة: درهمان كل يوم. فقال عمر: وما صناعتك؟ قال: نجار ونقاش وحداد. فقال أمير المؤمنين عمر: فما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الأعمال، وقد بلغني أنك تقول لو أردت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت؟ قال أبو لؤلؤة: نعم. فقال عمر: فاعمل لي رحى. فنظر أبو لؤلؤة إلى عمر نظرة حقد وكراهية وقال: لئن عشت لأعملن لك رحى يتحدث بها من في المشرق والمغرب! ثم انصرف فقال عمر ضاحكاً: لقد تهدَّدني العبد الآن!

ويظهر طرف آخر من أطراف المؤامرة: فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار - وهو يهودي هبط على المسلمين فجأة معلناً إسلامه فقال له: يا أمير المؤمنين اعهد[2] فإنك ميت في ثلاثة أيام. فقال عمر: وما يدريك؟ قال كعب: أجده في كتاب التوراة. فقال ساخراً: الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟! قال كعب الأحبار:

---

(١) أي أعنّي وانصرني.

(٢) أي حدد خليفتك.

اللهم لا، ولكني أجد حليتك وصفتك وأنك قد فني أجلك. قال عمر: وعمر لا يحس وجعاً؟ فقال كعب الأحبار: وجدتك في التوراة تقتل شهيداً. قال أبو حفص عمر: وأنّى لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب؟ فلما كان الغد جاءه كعب فقال: مضى يومان وبقي يوم، وهي لك إلى صبيحتها. فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة. وكان يوكل بتسوية الصفوف رجالاً، فإذا استوت كبّر، ودخل أبو لولؤة في الناس وبيده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فطعن عمر ست طعنات، إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته. وخرَّ عمر إلى الأرض! فأتى كعب إلى عمر فقال: ألم أقل لك إنك لا تموت إلاّ شهيداً، وأنت تقول: من أين وأنا في جزيرة العرب؟

وحاول أبو لؤلؤة الهرب فتكاثر الناس عليه فقتل نفسه بنفس الخنجر بعد أن طعن ١٣ مسلماً مات منهم سبعة!

وتدل القرائن كلها على أن عملية اغتيال عمر كانت بمؤامرة من حركة سرية، يقودها الهرمزان ملك الخوزستان الذي كان قد جيء به إلى المدينة أسيراً، وعهدوا بتنفيذها إلى أبي لؤلؤة. والهرمزان هو ملك تستر ومن أعظم قواد الفرس، وكان على ميمنة جيش رستم وزير ملك فارس في حرب القادسية، ولما قتل رستم فرّ الهرمزان بمن بقي من جنده، فما زال المسلمون يتابعونه حتى لجأ إلى مدينة تستر وتحصن بها، فحاصروه أشد حصار حتى أنزلوه على حكم الفاروق، وأتوا به إلى المدينة (سنة ١٧هـ) وكان المسلمون يسبون أبناء فارس ويتخذونهم عبيداً. ومن كان منهم بالمدينة كانوا يجلسون إلى الهرمزان، ومن هؤلاء السبايا فيروز الملقب بأبي لؤلؤة.

والواضح أن كعب الأحبار كان على علم تام بأبعاد المؤامرة بل وهو من الضالعين في التخطيط لها. وقد سخر عمر من كلام كعب الأحبار عندما أخبره أن أمامه ثلاثة أيام طبقاً لنبوءة التوراة!

كانت ضربات عمر قاتلة، لكن الرجل المصلح وهو على بعد خطوات من الموت، لم يتذكر من الدنيا إلاّ أمور المسلمين فقال وهو يلهث من أثر الطعنات: «لئن عشت إلى هذه الليلة وبقيت إلى الحول، لألحقن آخر الناس بأولهم، ولأجعلنهم رجلاً واحداً.. حتى يكونوا في العطاء سواء».

وكان أبو بكر يساوي بين الناس في العطاء، اجتهاداً منه أن هذه التسوية هي المحققة للعدل في ظل قلة موارد بيت المال يومئذ.. فلما تولى الأمر عمر بن الخطاب، وكثرت الأموال بعد الفتوحات الكبرى.. اجتهد عمر في أمر توزيع العطاء، واستقر الأمر على التمييز بين الناس في العطاء، وعلى تقديم السابقين إلى الإسلام - بدءاً بآل البيت - في سلم العطاء.. فلما قيل له إن في هذا خلافاً على ما أجمع عليه السابقون زمن أبي بكر، قال: «إن أبا بكر رأى في هذا المال رأياً، ولي فيه رأي آخر.. وإني لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه!» فلما مضت السنوات، ووجد أن التمييز بين الناس في العطاء قد أحدث تفاوتاً في الثروة لم يكن في الحسبان، وخشي من آثاره الاجتماعية، عزم على العودة إلى اجتهاد أبي بكر، في المساواة. لكن الموت حال بينه وبين تحقيق هدفه، وظل هذا الأمر موقوفاً حتى نفذه علي بن أبي طالب في خلافته عندما سوّى بين الناس في العطاء.

كان عمر يتألم وهو مستند على صدر ابنه عبدالله فقال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب: ألا تستخلف عبدالله بن عمر؟ فقال الرجل وهو ينزف: قاتلكم الله، والله ما أردت الله بهذا، أستخلف رجلاً لم يحسن أن يطلق امرأته؟! ثم نظر الخليفة المطعون إلى من حوله وقال: قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً[١]، ولو أدركني أحد رجلين ثم جعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة[٢] وأبو عبيدة بن الجراح[٣].

واشتد الألم على عمر بن الخطاب، فأعطوه كوباً من اللبن فشربه، ونظر فإذا اللبن يخرج سريعاً مع الدماء، فأيقن أنه على مشارف لقاء الله، فقال لابنه عبدالله: اعطني كل الألواح والعظام والرقاع التي كتبتها[٤].

فقال عبدالله: أنا أكفيكها[٥].

فقال عمر بانفعال: بل أقوم بمحوها بنفسي، ولم يسترح عمر إلاّ بعد أن محا الألواح.

ودخل عليه عبدالله بن عباس وقال له: أبشر بالجنة صاحبت رسول الله فأطلت صحبته ووليت أمر المؤمنين فقويت وأديت الأمانة.

---

(١) أي على الخلافة.
(٢) مات في حرب اليمامة.
(٣) مات بالشام في خلافة عمر.
(٤) يبدو أن هذه الألواح والعظام والرقاع كانت تتضمن بعض الأحكام والسنن.
(٥) أي أقوم بمحوها نيابة عنك، لأن عمر كان حريصاً على عدم تدوين أي شيء بخلاف القرآن.

فقال عمر: أما تبشيرك إياي بالجنة فوالله الذي لا إله إلاّ هو لو أن لي الدنيا وما فيها لافتديت به من هول ما أمامي قبل أن أعلم بالخبر، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، وأما قولك في إمرة المؤمنين فوالله لوددت أن ذلك كفاف لي ولا علي، وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله فذاك.

وزاد الألم واشتد لهاث الطعن على أمير المؤمنين عمر فقال: ادعوا لي علياً وطلحة والزبير وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. فلما جاءوا لم يكلم أحداً إلاّ علياً وعثمان فقال لعلي يا عليّ هؤلاء النفر يعرفون لك قرابتك من رسول الله، وما آتاك من العلم والفقه، فاتق الله، إن وليت هذا الأمر، فلا ترفعن بني فلان[1] على رقاب الناس.

وقال لعثمان مثل هذا. ثم التفت إليهما بعد خروجهما وقال لو أعطوها للأجلح[2] لقام بها.

ودعا صهيباً الرومي، وقال له عمر: صلِّ بالناس ثلاثاً، وليجتمع هؤلاء الرهط[3] في بيت فإن اجتمعوا على رجل فاضربوا رأس من خالفهم. ثم قال لمجلس الشورى قبل أن ينعقد: تشاوروا في أمركم فإن كان اثنان واثنان فارجعوا في الشورى وإن كان أربعة واثنان فخذوا صف الأكثر، وإن اجتمع رأي ثلاثة وثلاثة فاتبعوا صف عبد الرحمن بن عوف (أو قال: فليرجح بينهم عبدالله بن عمر) وأمر

(١) يعني بني هاشم.
(٢) الأجلح هو الأصلع أي عليّ.
(٣) أي الذين اختارهم.

عمر زيد بن الأسود (أبي طلحة) بأن يكون في خمسين من قومه، على باب البيت الذي يجتمعون فيه، فلا يتركهم يخرجون دون أمير، ولا يدخل أحداً عليهم ولما احتضر عمر قال لابنه عبدالله:

- يا عبدالله ائت أم المؤمنين عائشة فقل هل: إن عمر يقرئك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم بأمير المؤمنين، وقل: يستأذن أن تدفنيه مع صاحبيه[1] فإن أذنت فادفنوني وإن أبت فردوني إلى مقابر المسلمين.

فذهب عبدالله بن عمر لعائشة فقالت له: لقد ادخرت ذلك المكان لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي.

فلما رجع عبدالله إلى الفاروق قال عمر: أقعدوني. فلما أقعدوه سأل ابنه عبدالله: ما وراءك. قال ابن عمر: قد أذنت لك. فقال الفاروق: الله أكبر ما شيء أهم إلي من ذلك المضجع. وعاد إلى ابنه عبدالله وقال الفاروق: يا عبدالله: ضع خد أبيك على التراب. فقال ابن عمر: ولِمَ؟ فقال عمر: كي يرى رب عمر ذل عمر فيغفر لعمر.

ولم يزل يذكر الله تعالى ويديم الشهادة إلى أن توفي وخده على التراب.

ومات عمر بن الخطاب بعد ثلاثة أيام من طعنه فصلى عليه صهيب الرومي. وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين وليلة، وعمره (٦٣ سنة).

(١) رسول الله والصديق.

ويفيق الناس من هول الصدمة، فإذا هم يتساءلون: مَنْ قتل عمر؟! أيقتله أبو لؤلؤة لأنه لم يرفع عنه بعض ما فرضه عليه صاحبه المغيرة من ضريبة؟! أيصلح هذا سبباً؟! إن أعداء عمر لكثيرون، فقد أجلى اليهود من جزيرة العرب، ولم يسمح لدين غير الإسلام بالوجود في بلاد العرب، ولكن أكثر الناس عداء لعمر هم هؤلاء الفرس. وأقبل عبد الرحمن بن عوف على قوم يتدارسون أمر الجريمة، ويسأل بعضهم بعضاً عمن قتل عمر، وكان في القوم عبيدالله بن عمر، وهم يتأملون جميعاً ذلك السكين ذي النصلين الذي قتل به عمر، فأخذ ابن عوف السكين من مقبضها وأخذ يتأمل النصلين على طرفي المقبض، وهو يتعجب، وقال: رأيت هذه بالأمس مع الهرمزان وجفينة، فقلت لهما: ما تصنعان بهذه السكين؟ فقالا: نقطع بها اللحم! فوثب عبد الرحمن بن أبي بكر في زحام الناس، فقال: «لقد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر، ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجيّ[1]، فلما بغتهم ثاروا، فسقط منهم خنجر له رأسان ونصاب من وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر» فنظروا، فوجدوه كما وصفه هو وعبد الرحمن بن عوف، فلم يَرْتَبْ أحد في أن الثلاثة ائتمروا وأن أبا لؤلؤة ما قتل نفسه حين أحيط به، إلاّ لكي يدفن معه سر المؤامرة فمن يدري؟! ربما كانوا قد أعدوا لاغتيال آخرين من أبطال الفتوحات؟!

(١) أي يتناجون.

ولم يتمالك عبيدالله بن عمر نفسه، فتقلد سيفه، ومضى إلى الهرمزان فقتله، ثم قتل جفينة، وكان من نصارى الحيرة وادّعى الإسلام، ثم انطلق فقتل ابنة لأبي لؤلؤة صبية، ومضى يبحث عن العلوج في طرقات المدينة، فلم يلق أحداً إلاّ قتله، وكان ممن قتلهم بعض الذين أسلموا، فأسرع إليه رهط من المهاجرين على رأسهم سعد بن أبي وقاص، وأمسكوا به. ثم إن عثمان لما تولى الخلافة دفع دية القتلى من ماله، فقد استقبح أن يقتل أبو لؤلؤة عمر، ويقتل من بعده ابنه عبيدالله.

اغتيال عثمان بن عفّان

ثم يقتل عثمان بن عفان في مؤامـرة كاملة الأبعاد، فيكون قتله تمهيداً لأن يعود الأمـر أدراجه استبدادياً، كما كان في جاهليته، وإن اختلفت الصورة.

وما أصدقها كلمة جرت على لسان ثمامة بن عدي - وكان أمير صنعـاء يوم قـتل عـثمـان - اليـوم نزعت الخـلافة من أمـة مـحـمـد، وصارت ملكاً وجبرية، من غلب على شيء أكله.

فلقـد غلب الأمـويون عـثـمـان على أمـره فـشـغلوه بـأنفـسـهم كـأقرباء، وجنحوا به إلى ما خشـيـه عمـر عليه وحـذّر منه (إن ولِّيت هذا الأمـر فلا ترفعن بني أمـيـة على رقاب الناس) وغلبه على أمـره سـادتهم الطامعون من الاستئثار بالأمر بعده، يريدون أن يفوّتوه على «عليّ» وكانوا يرونه غير مستحق لها.

فقـد جلس مـعاوية يقطع في الأمـور دون عثمان، يصـرفهـا على هواه لتلك الغـاية التي ينشـدهـا وهو يقـول للناس: «هـذا أمـر عـثـمـان» يشـجّـعـهـم على ذلك... مَـيْل كـان في عـثـمـان فطرياً إلـى صلة ذوي رحـمـه، فقـد سـمـعوه يقـول: «إن أبا بكر وعـمـر يتـأوّلان في هذا المال ظلم أنفسهما وذوي أرحامهما، وإني تأوّلت فيه صلة رحمي».

يقول المؤرخ الإسلامي إبراهيم الأبياري: وكانت الثورة بعثمان ثورة شارك فيها الشعب مأجوراً مسوقاً، لم تكن ثورة من صنعه، وإنما كانت من صنع السادة الذين فزعوا بتدبير الأمويين، سيَّروا لها فلولاً من مختلف الولايات تقتحم على هذا الخليفة المظلوم داره، وتنال منه أشد النيل.

والشعب الذي حرّك لتلك الثورة، كان متعطّشاً إلى ثورة، لأن الباب الذي فتحه عليه الرسول وأبو بكر وعمر من الحرية والعدل والمساواة سدّه عليه عثمان غير مختار بإقحام الأمويين أنفسهم عليه، يوجهون الأمور من غير عدل ولا مساواة، ولم تكن له حرية في أن يقول أو ينقض ما يفعلون، ولكن الشعب مع هذا الضيق، لم يبلغ أن يدبّر لتلك الثورة، ولم يبلغ أن يكون تدبيره على هذه الصورة المؤلمة التي انتهت بمقتل عثمان، فلقد كانوا حين اجتمعوا بالمدينة لا يبلغون الألف، ستمائة من المصريين، ومائتان من الكوفيين، ومن البصريين مائة. وكانت مقاومتهم وفض شملهم وجمعهم شيئاً يسيراً على أهل المدينة وذوي الرأي فيها لو أرادوه، وصدق أبو جعفر القارئ حين قال: «ولعمري لو قام بعضهم فحثا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين».

ولكن المدبّرين للأمر.. استطاعوا أن يجمعوا الثائرين من شتى الأقاليم لجهاد عثمان، ثم تركوا لهذه الجموع الحبل على الغارب تموج في الفتن كما تشاء، ولو أن هؤلاء المدبّرين للثورة على عثمان دبَّروا لغيرها، واجتمعوا على رأي.. لانتهوا بعثمان إليه في يسر، ولسلم عثمان من القتل، وسلمت الأمة من تلك الفتنة الهوجاء،

ولكنهم تركوا عثمان يواجه تلك الجموع المتألبة بمنطقه، ولقد كاد يردّها عنه حين قال لهم «والله ما قصّرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي، ولم تكونوا تختلفون عليه» لأنهم - كما قلنا لم يثوروا عن رأيهم وتدبيرهم، وإنما كانت ثورتهم عن رأي غيرهم، ولولا مروان بن الحكم - حين انبرى للناس بعد عثمان يقول: «إن شئتم حكمنا والله ما بيننا وبينكم السيف» لوئدت الفتنة في مهدها، وعاد عثمان معافى، وكأن شيئاً لم يكن.

ولكن الثائرين الذين سكنوا لكلام عثمان هاجوا لكلام مروان، وهكذا أصبحت هذه الثورة الملفقة المزيفة ثورة حقيقية، وأصبح هؤلاء الشذاذ الذين جاؤوا المدينة للشكوى لعثمان - لا يعرف بعضهم بعضاً، ولم تجمع بينهم من قبل ندوة يديرون فيها الرأي، وإنما استجلبوا إليها كما يستجلب العملاء - أصبحوا بعد أن دخلوا المدينة وواجهوا عثمان وواجههم، واستفزّهم مروان وأثارهم، تجمع بينهم كلمة، ولكنها بقيت على الرغم من هذا كله ينقصها الرأي الناضج الذي يمهّد للثورة في النفوس، واليقين الراسخ الذي دفعهم إلى الهدف، لذلك بقوا في المدينة أربعين يوماً في اضطراب وبلبلة لا يدرون ماذا يفعلون.

وكان المدبرون للأمر من خلفهم هم الآخرون لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا إلى أي هدف يهدفون، ولكنهم كان يعنيهم أن يدوم هذا الاضطراب، فلم يحاولوا أن يصرفوا الناس عنه بتدبير يجنح إلى السلم، يلزمون به عثمان.

وما أسرع ما تضم الثورات إليها - إن دامت - حثالة القوم ينضمون إليها عبر حيوانية لا تزال في فطرة الناس، إذا هاجت فيهم غلبتهم على عقولهم وتفكيرهم، ثم عن مطامع دنيوية ينتهزها المغلوب ليصبح غالباً، والمحروم ليطفئ ظمأ الحرمان.

ولقد ذاق الناس في ظل حكم أبي بكر ثم حكم عمر معنى التحرر من سطوة ونير قريش الذي حملته عواتقهم من تلك الجاهلية الأولى الطويلة، فقد سوّى الإسلام بين عباد الله ولم يجعل لسادة الأمس - القرشيين - سطوة على عباد الله.

واطمأن الناس إلى خلافة أبي بكر ثم خلافة عمر، لأنهم رأوا فيهما انتصافاً من ماضٍ مظلم لم يتول فيه الحكم إلاّ قرشي. فلما آل الأمر إلى عثمان قبلوه مؤمنين به منكرين له. آمنوا به لأنه شيء أملته الشورى. وآمنوا به لأن عثمان، وإن كان قرشياً فهو شريكهم في جهاد طويل حمل فيه عبئاً كبيراً. وتنكّروا له لأنه بدّد من نفوسهم ذلك الأمل الذي بدأ. وأطفأ في نفوسهم هذا الرجاء الذي أشرق.

أحسّها سعيد بن العاص وهو والٍ بالكوفة حين سمع بخوض وجوه أهل الكوفة ورجالاتها في عثمان، فحمل هؤلاء الناس إلى معاوية في الشام بأمر عثمان، وناقشهم معاوية وناقشوه، إذ ما تنطوي عليه النفوس هو النقمة على قريش، وقد أثارتها في نفوسهم ولاية عثمان وما حدث فيها من أقربائه.

ويبلغ الثوار أن أهل الأمصار المناصرين لعلي سائرون إليهم، ويحس المدبّرون للأمر أن شيئاً سيقع يقطع على هذه الثورة

امتدادها، ويردّهم ولم ينالوا شيئاً، ويتراءى لهم حقهم المسلوب، وقد اجتمعوا معه قاب قوسين أو أدنى، يوشك أن يحال بينهم وبينه إلى غير رجعة، هنا يغلب الطيش العقل. لكن عثمان خليفة له السابقة في الإسلام والفضل على المسلمين، فيلتف الثائرون ببيته يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، يشتطون في حصاره ولا يجرأون على اقتحام داره. ويقتل المدافعون عن عثمان رجلاً من الثائرين عليه هو نيّار بن عياض، ويطلب الثائرون القاتل من عثمان، فيأبى أن يسلمه إليهم، وهو يقول: «لم أكن لأقتل رجلاً ينصرني وأنتم تريدون قتلي» فينقلب إحجام الثائرين إقداماً وتراخيهم عزماً، فإذا بهم يحرقون باب دار عثمان، وإذا الثائرون قد التفوا بعثمان. ولكنهم بالرغم من هذا كانوا أهيب من أن ينالوا منه أو يسفكوا له دماً، ووقفوا من حوله مبهوتين مأخوذين، يريدون أن يهموا به، ولكنهم لا يقوون على ما يريدون.

ويحسّ الثائرون بوعي، والذين قاموا بتدبير هذه الثورة على عثمان وإشعالها، بتردّد بعض المحاصرين لبيت عثمان فيتقدموا هم لينالوا من عثمان بأيديهم.

فما كان ثائرو البصرة - وهواهم في طلحة - وما كان ثائرو الكوفة - وهواهم في الزبير - وما كان ثائرو مصر - وهواهم في علي - ما كان هؤلاء جميعاً لينالوا من عثمان ما نيل منه لو لم يكن من ورائهم هؤلاء الذين أغضبهم من عثمان شأن من شؤون الحياة أمثال: محمد بن أبي حذيفة، فقد كان يتيماً يكفله عثمان، ثم لمّا شبّ سأل عثمان العمل... فأباه عليه.. وهو يقول:

لو كنت رضا لاستعملتك، فأسرَّها ابن أبي حذيفة من نفسه وأنساه بخل عثمان بما لم يملك، جوده بما كان يملك. وقدم الثوار لقتل عثمان.

أما محمد بن أبي بكر، فلقد كان لطمعه في الخلافة يحمل في نفسه لعثمان شيئاً، وذلك حين لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره فكان في طليعة قتلة ذي النورين.

وأما عن كعب بن ذي الحبكة النهدي، فكان يلعب بالنيرنجات - وهي شيء كالسحر - فبلغ عثمان، فكتب إلى الوليد أن يوجعه ضرباً.

وأما عن عمير بن ضابئ، فإنه عاش يذكر لعثمان تعزيره لأبيه، وحبسه له حتى مات في السجن. ولم يذكر عمير أن عثمان لم يفعل ذلك بأبيه كيداً له أو لكراهية، وإنما فعلها إنصافاً لقوم من الأنصار اغتصب منهم ضابئ كلباً، ثم هجاهم.

وأما عن عمّار بن ياسر، فلقد كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب يوماً كلام وسباب، ضربهما عليه عثمان، لم يضرب عماراً دون عتبة، ولم يضرب عتبة دون عمار، لأنه رأى كلاً منهما قد قذف صاحبه قذفاً يوجب الضرب.

فهؤلاء وأمثالهم كانا أجرا على عثمان، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين هوّنوا على الناس قتل عثمان.

وقتل عثمان فخسر كل الثائرين والطامعين واستبد ولاة الأمور الجدد بالحكم، واستأثروا بخراج وفيء الفتوحات، والثمن كان قميص عثمان.

قطع الثائرون الماء عن بيت ذي النورين عثمان، وحاصروه فلم يسمحوا لأحد بالدخول أو الخروج، ومنعوه من الصلاة في مسجد رسول الله.

وبدأت الفتنة بأن عابوا على أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه استعمل أقرباءه، فكان بالشام معاوية بن أبي سفيان، وبالبصرة سعيد بن العاص، وبمصر عبدالله بن أبي سرح، وبخراسان عبدالله بن عامر، وكتب ذو النورين لوزيره ومستشاره مروان بن الحكم بخمس خراج إفريقية - المغرب - وأعطى أقرباءه المال وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وأنا أخذته فقسمته في أقربائي.

فكره ولايته نفر من أصحاب رسول الله لأن أمراءه كانوا يأتون ما ينكره أصحاب محمد وكان ذو النورين يستعتب فيهم فلا يعزلهم. وقد استأثر آله فولاهم وما أشرك معهم وأمرهم بتقوى الله.

وقد جعل الناس بعد ذلك يظهرون إنكارهم من سياسة عثمان.. فجاء أهل مصر يشكون عبدالله بن أبي سرح ويتظلمون منه، فكتب ذو النورين إلى عبدالله بن أبي سرح كتاباً يتهدده فيه، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عثمان عنه وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان من أهل مصر ممن كان أتى عثمان للشكوى فقتله.

فخرج من أهل مصر ستمائة رجل فنزلوا مسجد رسول الله، وشكوا إلى الصحابة في مواقيت الصلاة ما صنع عبدالله بن أبي

سرح بهم، فقام طلحة بن عبيدالله فكلم عثمان بن عفان كلاماً شديداً، وأرسلت أم المؤمنين عائشة إليه فقالت: تقدم إليك أصحاب محمد وسألوك عزل الرجل[1] فأبيت؟ فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم عن عاملك.

ودخل علي بن أبي طالب على أمير المؤمنين عثمان ليحدثه في شأن عماله وقال: «الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغه، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ونلت صهره. وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك. تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدي وهَدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة، فوالله إن كلاً لبيِّن وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام. وإني سمعت رسول الله يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم، فيدور في جهنم كما تدور الرحى، ثم يرتطم في غمرة جهنم» وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته. فإن عذابه شديد أليم. وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: «يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها، ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل، يموجون فيها موجاً».

(١) تقصد ابن أبي سرح.

فرد عثمان بن عفان على علي قائلاً: «وقد والله علمت لتقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك، ولا عبت عليك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة، وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي! أنشدك الله يا علي... هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم. قال: فتعلم أن عمر ولاّه؟ قال: نعم. قال: تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي: إن عمر كان إذا ولّى أحداً فإنما يطأ على صماخيه[1]، فإن بلغه شيء جاء به وبلغ في زجره أقصى الغاية أما أنت فلا تفعل فقد ضعفت ورفقت بأقاربك.

قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً. فقال علي: نعم إن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم. قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية طوال عهده وخلافته كلها؟ فهل الام آنا إن وليته؟ فقال علي: أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من «يرفأ» غلام عمر منه؟ قال: نعم قال علي: فها هو معاوية يقطع الأمور دونك وأنت لا تنهاه، وها هم أهل مصر يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً، فاعزله عنهم واقض بينهم، فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه.

وخرج محمد بن أبي بكر ومن معه فلما كان على مسيرة ثلاثة أيام من مدينة رسول الله إذا هم بغلام أسود يجري ببعيره مسرعاً فأمسكوا به وسألوه من أنت فقال: أنا غلام أمير المؤمنين وجهني

(١) أي خدّيه.

إلى عامل مصر[1]، فقال له رجل من أهل مصر وهو يشير إلى محمد بن أبي بكر: هذا والي مصر. فقال الغلام: ليس هذا ما اريد. وشددوا عليه فقال: أنا غلام مروان بن الحكم، وعثروا معه على كتاب من أمير المؤمنين عثمان إلى ابن أبي سرح - والي مصر المخلوع - مكتوب فيه: إذا أتاك فلان وفلان فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي واحبس من يجيء إلي بتظلم منك ليأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله تعالى.

فلما قرأوا الكتاب فزعوا، ورجعوا إلى المدينة فجمعوا طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص، وقرأوا عليهم الكتاب المختوم بخاتم عثمان، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلاّ وحنق على أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وقام صحابة رسول الله فلحقوا بمنازلهم ما منهم أحد إلاّ وهو مغتمّ لما قرأوا الكتاب.

وخرج عثمان ذات يوم، وصلى بالناس كما كان يصلي بهم من قبل، ثم جلس على المنبر فجعل يعظ الناس ويبصرهم كما تعود أن يعظهم ويبصرهم. وقال لبعض معارضيه الخارجين عليه: «يا هؤلاء العدى الله الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطايا بالصواب، فإن الله عزّ وجل لا يمحو السيئ إلاّ بالحسن». فأيّده محمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، ولكن المعارضين أقعدوهما. وقام جبلة بن عمرو الساعدي (رجل من

(١) أي واليها.

الأنصار) فقال يا عثمان انزل ندرعك عباءة ونحملك على شارف من الإبل إلى جبل الدخان كما سيرت خيار الناس[١]، قال عثمان: قبحك الله وقبّح ما جئت به.

ولم يكد عثمان يرد على جبلة هذا حتى قام جهجاه بن سعيد الغفاري[٢]، فوثب إلى المنبر فأخذ من عثمان العصا التي يخطب عليها، وهي التي خطب عليها النبي وصاحباه من بعده، فكسرها على ركبته. ثم ثار الناس فتحاصبوا وحصب عثمان[٣] حتى صرع واحتمل مغشياً عليه، فأدخل إلى داره فلم يخرج منها إلاّ مقتولاً.

ومنذ ذلك اليوم سار الثائرون مع عثمان سيرة منكرة، منعوه من الصلاة في مسجد النبي، وأقاموا منهم رجلاً يصلي بالناس هو الغافقي زعيم المصريين. ثم حاصروه في بيته، ودخل عليه علي بن أبي طالب ونفر من صحابة رسول الله وسألوه عن الكتاب الذي أرسله إلى والي مصر مع غلامه؟ فحلف ذو النورين أنه ما كتب هذا، ولا أمر به، ولا وجّه هذا الغلام إلى مصر قط. وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان بن الحكم، فسألوه أن يدفع إليهم مروان بن الحكم فأبى، وكان مروان عنده في الدار. فخرج الصحابة من عنده غضاباً، وعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل إلاّ أن أقواماً رفضوا تبرئة عثمان، وقالوا: فإن يكن عثمان كتبه عزلناه، وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان نظرنا ما يكون معنا في أمر مروان.

(١) أي يهدده بالفضيحة والقتل في جبل الدخان.
(٢) جهجاه بن سعيد الغفاري: من رهط أبي ذر ومن الذين شهدوا بيعة الرضوان.
(٣) أصيب بالحجارة.

ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه القتل.

وحاصر الناس ذا النورين في بيته ومنعوا عنه الماء، فخرج عليهم من شرفة بيته وقال: السلام عليكم. فلم يرد عليه أحد من المتمردين. فقال عثمان: أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة من مالي وجعلت فيه رشائي كرشاء رجل من المسلمين؟ فقالوا: نعم. فقال ذو النورين: فعلام تمنعونني ماءها وأفطر على الماء المالح. فلم يرد عليه أحد. فسكت عثمان ثم قال: ألا أحد يبلغ علياً فيسقينا ماءً؟

فبلغ ذلك أبا الحسن فبعث علي بن أبي طالب إليه بثلاث قرب مملوءة ماء. وأقبلت أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان تحمل شيئاً من الماء فضرب المتمرّدون وجه بغلتها وقطعوا قربها وحقبها حتى كادت أم المؤمنين تسقط لولا أن تلقاها بعض الرجال وكذلك خرجت أم المؤمنين صفية بنت حيي على بغلة لها لترد عن عثمان فلقيها الأشتر - وهو من زعماء الفتنة - فضرب وجه بغلتها حتى مالت وكادت تسقط، فقالت ردّني لا يفضحني هذا ثم وضعت خشباً من منزلها إلى منزل عثمان تنقل إليه الماء والطعام.

واستمر الحصار شهرين وعشرين يوماً، وبدا أن المتمردّين بدأوا في تطوير حصارهم، حينما تسوّروا داره[1]، فلما بلغ علي بن أبي طالب أن عثمان يراد قتله قال: إنما أردنا منه مروان فأما قتل

(١) صعدوا إلى سطح داره.

عثمان فلا. وقال لابنيه الحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه.

وبعث الزبير بن العوام ابنه عبدالله وبعث طلحة بن عبيدالله ابنه، وكذلك فعل عدد من أصحاب رسول الله بعثوا أبناءهم يمنعون المتمرّدين أن يدخلوا على عثمان.

يقول أبو هريرة: إني لمحصور مع عثمان في الدار فرمي رجل منا فقلت: يا أمير المؤمنين الآن طاب الضراب. فقتلوا منا رجلاً: قال: عزمت عليك يا أبا هريرة إلاّ رميت سيفك فإنما تراد نفسي وسأقي[١] المؤمنين بنفسي.

وأصبح عثمان في هذه الليلة صائماً وقال لأصحابه: لولا أن تقولوا تمنى عثمان لحدثتكم حديثاً عجيباً. قالوا: فإنا لا نقول ذلك. قال عثمان: إني رأيت رسول الله ومعه أبو بكر وعمر فقال لي: افطر عندنا الليلة يا عثمان.

وقفز محمد بن أبي بكر فوق سور منزل عثمان من دار رجل من الأنصار، ودخل عليه وهو يقرأ القرآن: فأخذ بلحية عثمان فقال ذو النورين: والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني. دعها يا ابن أخي والله لقد كان أبوك يكرّمها.

فتراخت يد محمد بن أبي بكر الصديق واستحيى وخرج، فدخل صاحبه رومان بن سرحان ومعه خنجر فاستقبله به وقال: على أي دين أنت يا نعثل[٢]، فقال عثمان: لست بنعثل ولكني عثمان

(١) أقي: أفدي.
(٢) النعثل هو الشيخ الأحمق.

ابن عفان وأنا على ملّة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين. فردّ رومان: كذبت وضربه على خده الأيسر بالخنجر فخرّ عثمان على الأرض، فأدخلته زوجته نائلة بنت الفرافصة بينها وبين ثيابها - وكانت امرأة جسيمة - ودخل رجل من أهل مصر معه السيف مصلتاً فقال: والله لأقطعنّ أنفه. وضرب نائلة فكشفت عن ذراعها وقبضت على السيف فقطع أناملها فطعن عثمان وسقطت قطرة أو قطرات طاهرات من دم عثمان على المصحف الذي كان أمامه. واستشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الجمعة في الثامن من ذي الحجة يوم التروية سنة ٣٥هـ، وكان عمره ٨٦ عاماً، وقضى في الخلافة إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً.

اغتيال الإمام علي بن أبي طالب

«لقد ولدت سيدتي عاتكة».

قالها سعد لسيده عبد مناف، وكانت زوجته «عاتكة بنت مرّة» حاملاً وتعاني كثيراً من حملها.

ثم أضاف سعيد: «ولدت سيدتي ذكرين اثنين يا مولاي! ولكن.. ادعُ طبيب الحي».

فاندهش عبد مناف فأوضح سعد: «لقد ولد الولدان وأحدهما متصل بالآخر».

ولدت عاتكة زوجة عبد مناف اثنين في بطن هما «عبد شمس» و«هاشم»، وجاء التوأمان متصلين ببعضهما من الكعبين وهو اتصال لم يكن يخشى معه الضرر على الوليدين، لأن كعب عبد شمس وكعب هاشم كانا متصلين بجلدة رقيقة، فصلها الطبيب بسهولة، ولكن سالت بعض نقاط من الدم بسيطة من الكعبين. وظنّ الأبوان أن تلك الندبة ستزول بعد يوم أو يومين، لكن العرافين والكهّان كان لهم مع تلك القطرات من الدم شأن آخر، استمع الأبوان لهذا الرأي، فهالهما ما سمعا، ونقل إلى الناس فاستفظعوه، ورجوا منه السلامة. لقد حدس العرّافون والكهّان أن هذا الدم الذي سال نذير شر مستطير، يَصلَى به أبناؤهما، لا تهدأ ثائرته،

وسوف يعيشون في حرب متصلة لا تعرف الهوادة ولا الرفق، يموت فيها من يموت، ويحيا بعدها من يحيا ولكن على البغضاء المباعدة والشحناء المنفرة، لا يلتئم لهم شمل، ولا تجتمع لهم كلمة!

وأمسك الأبوان عن إذاعة هذا الخبر، لكنه كان قد شاع وملأ الأسماع، وأصبح حديث الناس كلهم، فقد كان الوالد عبد مناف في موقع النباهة والرياسة.

ونشأ «عبد شمس» و«هاشم» في كنف والدهما. وكان إذا خلا أحدهما بالآخر أحسن في البر به وأسرف، يريد أن يغلب العرافين والكهّان على ما تنبآ به.

وما علم عبد مناف - الأب - وكذا هاشم وعبد شمس أن نبوءة العرافين والكهّان لم تكن فيهما، وإنما في حييهما من بعدهما، وأن الشر كل الشر سيكون بين أبناء هذين الحيين، يصطلون به، ويصطلي الناس معهم به!

ويموت عبد مناف، فتجتمع كلمة قريش على أن تولي «هاشماً» من بعده الرياسة والسقاية والرفادة. ويقبل هاشم على ما ولي من أمر الناس فيحسن فيما ولي، يطعم زوار بيت الله من زمن الحج، فلا يترك جائعاً، ويتعهدهم بلطفه، ويؤنسهم برعايته فتمتلئ القلوب بمحبته، وتجتمع الأفئدة على إجلاله. ويشمر «هاشم» وينهض تجّار قريش، فيردّهم إلى يسر بعد عسر، ويسنّ لهم رحلتي الشتاء والصيف، هذه إلى الحبشة وتلك إلى الشام، ويكتسب لهم آفاقاً جديدة يعطون فيها ويأخذون، بعد أن كانت آفاقهم محدودة، وأسواقهم محصورة يصيبهم فيها العسر، وينالهم معها القحط.

وكان «عبد شمس» توأم هاشم يرى هذا كله فيؤذيه ارتفاع شأن أخيه، وخمول ذكره.

ويموت «هاشم» فلا ترد الأمور إلى أخيه عبد شمس ولكن يليها من بعده ابنه «عبد المطلب»، ثم يموت عبد شمس، ويخلف من بعده أمية، ليرى العز الذي حرم منه أبوه فنغّص عليه حياته، ينتقل إلى ابن عمه «عبد المطلب» فينغّص عليه هو الآخر حياته.

ويتولى عبد المطلب أمر قريش، فلا يتوانى جاهداً من أن يزيد على ما ثبت أبوه له ووطد قاصداً، وهو بها يزيد من حقد «أمية» عليه وضيقه به غير قاصد، ويطعم الطعام فيرتضيه الناس ويحبونه، ويحفر الله «زمزم» بيديه فيعلو صيته!

ويسوق أبرهة جيوشه لهدم الكعبة فيخرج إليه عبد المطلب يكلمه فيما جاء له عساه يرتد عنهم، ويرقب الناس سعي سيدهم وينتظرون، فلا يطول بهم الانتظار حتى يروا جيوش أبرهة قد حصدها الموت حصداً بتدبير السماء فيرون فيه السيد الميمون، فيزدادون به تعلّقاً وحباً!

وما إن بعث الله بنبيه من هذا الفرع «هاشم» حتى كان أشد الناس عداوة له وعناداً عليه «بنو أمية بن عبد شمس» وما عاداه هؤلاء على رسالته، فالظن أنهم لم يفتحوا لها أذناً ولا قلباً، بل قد رأوها أول ما رأوا مجداً جديداً يضاف إلى بني هاشم، ورأوا إن هم أسلموا لـ«محمد» أسلموا له كل شيء، وصاروا له تبعاً، لا يمتازون عن غيرهم من الناس.

ويهجر الرسول مكة، ويقبل عليه الناس فيؤمنون، وتدين العشائر بدينه، و«قريش» تدبر له وتكيد، ويلتقي بهم الرسول في حرب إثر حرب، وغزوة بعد غزوة، ثم يدخل عليهم مكة فاتحاً، فإذا آمن من بقي من سادة «قريش» صاغرون لا يملكون إلاّ أن يسلموا لابن عمهم بعدما أسلموا ما في أيديهم من سلاح.

ولكن الإسلام الذي دخل على الأمويين أولاد عبد شمس قلوبهم، فاستلّ منهم الكبائر، التي عاشوا عليها جاهليتهم، لم يستطع أن يستل منها حقدهم على «الهاشميين» أولاد عمومتهم، فاجتمعوا معهم على الإسلام ديناً، واختلفوا وإياهم على الرياسة دنيا، وما أحبوا أن يغلبوا على الحياة وهم مسلمون، بعد أن غلبوا عليها وهم كفار، وأخذوا يتحينون لها الفرص، ويهيئون لها الوسائل.

ويقبض الله إليه رسوله، وما كان محمد رسول الله إلى الهاشميين. ولا رسوله إلى الأمويين، ولكنه كان رسول الله إلى الناس كافة، يرى الناس أنفسهم من رسالته سواسية، لا فضل لأحد على غيره إلاّ بالتقوى.

ويجتمع المسلمون في «السقيفة» يتبادلون الرأي فيمن يختارونه. وتظهر القبلية بقرنها. لكن صحابة رسول الله يقتلونها في مهدها، ويختارون أبا بكر خليفة للمسلمين، فيقول أبو سفيان (ابن عبد شمس):

- ما لنا ولأبي بكر؟ إنما هي لـ«بني عبد مناف»؟

ويذهب إلى علي بن أبي طالب ليقول له: ابسط إليّ يدك «أبا الحسن» حتى أبايعك؟

فيرد عليّ دعوته ويقول:

- إنك والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة... وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك!

وقد ضرب «علي» بهذا المثل الأعلى في نسيان الذات والتجرّد من الأنانية، وأنه كان المسلم المتديّن الذي يرى للمسلمين قبل أن يرى لنفسه وأهل بيته!

ويحملها «أبو بكر» عاماً بعد عام، ويليها من بعده «عمر» ولم يكن «أبو بكر ولا «عمر» من «هاشم» ولا «عبد شمس» فانقمعت بهما العصبية، ونسي بولايتيهما الناس ما عاشوا عليه بالأمس القريب من جاهلية.

وما يكاد «عمر» يمضي حتى يختار الناس عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، خليفة من بين نفر سماهم لهم عمر.

وهكذا ردَّ الأمر إلى الأمويين ولم يردّ إلى الهاشميين وقبله الناس على أنه لن يغيِّر من سنتهم التي بدأوا بها، واستقبله الأمويون على أنه تغيير لسُنّة الناس التي أرادوا أن يعيشوا عليها، وأراد الناس عثمان على أنه منهم.

وثارت العصبية الأولى من مرقدها، وانقبضت أيدي الأمويين على أزِمّة الحياة، فلا يتركونها!

وما يكاد يمضي عثمان مقتولاً حتى يلتفت إليها الهاشميون يجعلونها لعليّ، وما كان يتولاها «علي» حتى يلقاه الأمويون بالكيد والتجريح، وما نظروا في ذلك لأمر المسلمين، ولكنهم نظروا إلى

هذه الدنيا التي ما كادوا ينتزعونها من أيدي الناس حتى أراد الهاشميون أن ينتزعوها من أيديهم.

وحرص «الأمويون» على أن يثيروها فتنة، فطفقوا يزكون نارها كلما أوشكت أن تخمد!

وحرص الهاشميون على أن يجعلوها أمناً وطمأنينة فشمروا للحجة، يريدون أن يقنعوا بها الناس.

وما بين الفتنة والإقناع بالحجة ولدت المؤامرة على اغتيال الإمام عليّ نفّذها «خارجي» ينتمي إلى الخارج، لكن أطراف المؤامرة كلها كانت في ذلك العصر الذي يصفه العقاد بقوله «كان عصر عليّ عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه. فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناء جديداً في سبيل التمام، ولم يكن بناء متداعياً فكله هدم واندثار، ولا بناء قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار. غير أن العجيب فيه حقاً أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين: أحدهما وهم قسم الرضا عن النظام الاجتماعي. كان قسم معاوية بن أبي سفيان من الشام وما جاورها. والثاني قسم التذمر من النظام الاجتماعي كان قسم علي بن أبي طالب في الجزيرة العربية كلها» ومن هذا القسم المتذمر ولد الخوارج الذي رتبوا لمؤامرة اغتيال الإمام.

وبينما كان علي يجاهد حياته المرة تلك، ويجاهد أصحابه ليحملهم على النهوض معه إلى حرب الشام، ويبعث البعوث لرد غارات معاوية على أطرافه من العراق والحجاز واليمن، ويجاهد

الخوارج الذي يجاهرونه بالعداء وينشرون الروع والفزع في الناس، ويلين للخوارج الذي كانوا يعيشون معه في الكوفة يتربصون الفرص للخروج. ويجاهد عامله ليأخذهم بالأمانة في أعمالهم. بينما كان عليّ في هذا كله، كان ناس من الخوارج يشهدون الموسم ويرون اختلاف الحجيج من أصحاب علي ومعاوية، كل يأبى أن يصلي بصلاة أمير خصمه، حتى اختار الناس رجلاً ليس بالأمير لهذا أو ذاك ليقيم للناس صلاتهم.

فضاق هؤلاء النفر من الخوارج بما رأوا من خلاف، وراحوا يفكرون في مؤامرة للخلاص.

فالخوارج - كما هو معروف - فرقة انشقت من جيش علي بن أبي طالب، منكرة عليه أموراً بدت منه، كقبوله مبدأ التحكيم في النزاع بينه وبين معاوية. وتركزت دعوتها على أن شؤون الأمة لا ينبغي أن تصرف إلاّ على أساس الالتزام الصارم بأحكام القرآن، واتخذت جملة «لا حكم إلاّ لله» شعاراً لها.

وقد تطرف بعضهم فذهب إلى أنهم وحدهم المسلمون حقاً، وأن من عداهم من أهل النار، لا وِزر على الخوارج إن هم قتلوهم أو سلبوهم أموالهم. وقد كانت فرقتهم مكوّنة من جماعات صغيرة، يتراوح عدد أعضاء الواحدة بين الثلاثين والخمسمائة، وتقيم الجماعة في معسكر قرب مدينة أو طريق للتجارة، يتعيش أفرادها مما ينهبونه من المدن أو القوافل المارة، ويبثون الذعر في قلوب أهل المنطقة.

وليس من المصادر بين أيدينا ما يوحي بأن هذه الفرقة قد عانت من المظالم الاقتصادية ما دفعها إلى ذلك السلوك الذي انتهجته غير أن هذه المصادر تقودنا إلى حقيقة هامة، ألا وهي أن أفرادها كانوا ينتمون إلى قبائل هي في الأصل من قبائل البدو (خاصة من قبيلة تميم) وهي تلك التي اعتادت في الجاهلية شنّ الغارات على القوافل وسائر القبائل، تعيش مما تصيبه خلالها من غنائم. وقد جاء الإسلام فأحلّ الأخوة في الدين محل العصبية القبلية، وحرّم على المسلمين سفك دم المسلم، غير أنه في نفس الوقت هيأ منفذاً مشروعاً لذلك الولع بالغارات التي أسماها البعض بالرياضة القومية للبدو، ألا وهو الفتوحات الإسلامية للأقطار خارج شبه الجزيرة.

لكن حياة الحضر لم ترق لهؤلاء البدو، فبحثوا عن أساس متين لتمرّدهم - حسب تحليل حسين أحمد أمين - فهجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بفرض السلب والغنيمة وقالوا إنها جهاد!

وقف علي على المنبر وقال لأصحابه محركّاً الهمم لقتال معاوية ورجاله: «ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذُلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنّت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتم: هذه حَمَارة القيظ[١] أمهلنا حتى

(١) حمارة القيظ: شدة الحر.

يخفّف عنا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صَبَارة القرّ[1] أمهلنا حتى ينكشف عنا البرد، كلُّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون، فأنتم والله من السيف أفر! يا أشباه الرجال ولا رجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم! معرفة والله جَرَّت ندماً، وأعقبت سدماً[2] قاتلكم الله!! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نخب التهمام أنفاساً[3] وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم!! وهل أحد منهم أشد لها مراساً[4] وأقدم فيها مقاماً مني؟

ولم يترك الغيظ الذي تنبأ به رسول الله بأنه سيلازم علي أمير المؤمنين والخليفة الرابع الراشد لحظة قبل اغتياله فقد صعد على المنبر ودموعه تتحدر على لحيته وهي بيضاء حينما أخبروه أن هناك من يسبّ الصديق والفاروق وقال: ما بال أقوام يذكرون سيديّ قريش وأبويّ المسلمين بما أنا عنه متنزّه، ومما يقولون بريء وعلى ما يقولون معاقب، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلاّ مؤمن تقي ولا يبغضهما إلاّ كل فاجر غوي، أخوا رسول الله ووزيراه».

(١) صبارة القرّ: شدة البرد.
(٢) السدم هو الهم مع الغيظ والأسف.
(٣) التهمام هو الهم، وأنفاساً أي جُرعاً.
(٤) المراس: الخبرة والممارسة.

وفيما كان يستعد لقتال بعض الخارجين عليه دخل عبدالله بن العباس عليه وهو يخصف نعله[1]، فقال الإمام علي لابن عباس: «ما قيمة هذه النعل؟ فقال: لا قيمة لها. فقال: والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً».

وبلغ زهد الإمام علي أنه - وهو أمير المؤمنين - كان يخرج إلى الناس برداء وإزار قد رقعه بخرقة، فقيل له ما هذا؟ فقال: إنما ألبس هذين الثوبين ليكون أبعد لي من الزهو وخيراً لي في صلاتي وسنة للمؤمن. وجاءه عامله على بيت المال (ابن النباج) فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء[2].

فقال الإمام علي: الله أكبر، وقام متوكئاً على ابن النباج حتى قام إلى بيت مال المسلمين فقال:

هذا جناي وخياره فيه

وكل جانٍ يده إلى فيه

ثم قال: يا ابن النباج إليّ بأهل الكوفة، فنودي في الناس فأقبلوا فأعطى أمير المؤمنين عليّ جميع ما في بيت المال لهم وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غُرِّي غيري. ها.. وها!!

حتى ما بقي دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وكنسه وصلى فيه ركعتين رجاء أن يشهد له يوم القيامة.

وفي مقابل هذا يقول الأرقم بن أبي الأرقم:

(١) خصف نعله: قام بترقيعها وإصلاحها.
(٢) الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة.

رأيت علياً - وهو أمير للمؤمنين - يبيع سيفاً له في السوق ويقول: من يشتري مني هذا السيف؟ فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته.

فقال أبو رجاء: يا أمير المؤمنين أنا أبيعك - أي الإزار - وأنسئك إلى العطاء[1]، فلما خرج عطاء الإمام علي أعطى أبا رجاء.

ودخل عبدالله بن رزين على أمير المؤمنين عليّ يوم عيد الأضحى فقرب إليه «خزيرة»[2]، فقال عبدالله ومن معه: أصلحك الله لو أطعمنا هذا البط، فإن الله قد أكثر الخير.

قال أمير المؤمنين عليّ: إني سمعت رسول الله يقول: لا يحل للخليفة من مال الله إلاّ قصعتان: قصعة يأكلها وهو أهله وقصعة بين يدي الناس.

وقبل عدة أيام من استشهاده صلى الإمام علي الغداة في المسجد ونظر إلى أهل الكوفة وظلّ صامتاً، ولبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس، وبانت عليه الكآبة وغشاه الهم ثم قال: لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أرى أحداً يشبههم والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم مثل ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى بلّت ثيابهم - والله - لكأن القوم باتوا غافلين.

(١) أنسئك إلى العطاء: انتظر حتى تحصل على راتبك.

(٢) الخزيرة لحم يوضع عليه دقيق بعد النضج.

كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل، خلق الثياب، تعرفوا به في السماء وتذكروا به في الأرض.

ونزل من على المنبر ودموعه تسيل فوق لحيته البيضاء بينما كان عليّ في هذا كله - والغيظ يمزقه - كان ناس من الخوارج يعدّون ويجهزّون لمؤامرة يتخلصون بها من الإمام عليّ، ومن معاوية بن أبي سفيان، ومن عمرو بن العاص في وقت واحد، هو صلاة فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين هجرية:

أما معاوية فكان دارعاً[1] فلم ينل منه قاتله «الخارجي» شيئاً، وإنما جرحه جرحاً خفيفاً، ثم لقي حتفه هو على يد أصحاب معاوية.

وأما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة في فجر هذا اليوم لمرضه، وأناب رئيس شرطته للصلاة بالناس، فقتله «الخارجي» ظناً منه أنه عمرو، وأمسك به الناس واقتص منه عمرو بن العاص لقتله رئيس شرطته.

وخرج الإمام علي ليلة الجمعة للصلاة راكباً بغلته الشهباء وهو ينادي: أيها الناس الصلاة الصلاة.

وكان عبد الرحمن بن ملجم المكلّف بقتل الإمام علي، ومعه رفيق له يتربّصان بالإمام عليّ بجوار المسجد، فلما خرج صرخ ابن ملجم الحكم لله يا عليّ لا لك ولأصحابك - وعليّ نفسه يقول الصلاة يا عباد الله - وعالجه بضربة سيف في جبهته، فانشقت

(١) يلبس الدروع التي تحميه.

رأس الإمام علي حتى رُئي مخه، ووقعت ضربة سيف رفيق ابن ملجم في جدار بيت، وخرّ الإمام علي وهو يقول: لا يفوتنكم الرجل.

فأمسك الناس بابن ملجم، وقتل صاحبه وهو يحاول الفرار، وتأخر الإمام علي وتقدم جعدة بن هبيرة - هو ابن أخته أم هانئ بنت أبي طالب - ليصلي بالناس. وحمل عليّ إلى داره. وقال وهو يحتضر: أحضروا الرجل عندي. فأدخل عبد الرحمن بن ملجم عليه فقال الإمام علي: أي عدو الله ألم أحسن إليك؟ قال ابن ملجم: بلى. فقال علي: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال أمير المؤمنين عليّ لا أراك إلاّ مقتولاً به ولا أراك إلاّ من شر خلق الله.

ونظر ابن ملجم إلى أم كلثوم بنت عليّ وهي تبكي وقال لها ساخراً: فعلى من تبكين. والله إن سيفي اشتريته بألف وسمّمته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم أحد.

وتقول بعض الروايات إن عبد الرحمن بن ملجم كان يهوى امرأة فطلبت رأس الإمام عليّ منه مهراً.

ومضى يوم وليلة فنظر الإمام علي لمن حوله وقال لهم أن يطعموا ابن ملجم ويكرّموا مثواه: النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون في دم المسلمين تقولون: قد قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلاّ قاتلي.

انظر يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه بضربة ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله يقول: «إياكم والمثلة[1] ولو بالكلب العقور».

وتنهّد الإمام علي وقواه تخور - كان ابن عم رسول الله قوياً أسمر شديد السمرة ثقيل العينين عظيمهما ذا بطن، أصلع عظيم اللحية كثير شعر الصدر، فوق القصير بقليل، عظيم عضلة الذراع، ضخم عضلة الساق، وكان من أحسن الناس وجهاً ولا يغيِّر شيبه، كثير التبسّم - ونظر إلى من يسأله عن الدنيا وقال ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب؟! أدبرت الدنيا وآذنت بوداع، وأقبلت الآخرة وأشرفت باطلاع، الا وإن اليوم المضمار[2] وغداً السباق، والسَّبقةُ الجنة[3] والغاية النار أفلا تائب من خطيئته قبل منيته؟

ونظر إلى الحسن والحسين وقال: «أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا، وإن بغتكما».

وعلت أنفاسه وتتابعت وهو يقول: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[4].

شهق وهو يقول لا إله إلاّ الله. وصعدت روحه إلى بارئها بعد يومين من طعنته المسمومة. وكان عمره ٦٣ سنة. واستمرت خلافته

(١) المثلة بفتح الميم وضم الثاء: العقوبة، والجمع المثلات.
(٢) المضمار: موضع تضمر فيه الخيل، وتضميرها أن تعلف قوتاً بعد السمن.
(٣) السبقة بالفتح فالسكون: ما يتسابق إليه.
(٤) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧-٨.

خمس سنوات إلاّ ثلاثة أشهر. وقد استراح الإمام علي من كل الشقاء الذي لاقاه في حياته، ومن الغيظ الذي ملأ عليه نفسه من أهل الدنيا.. إلاّ أن المؤكد أن الأمة لم تسترح بعد أن فقدت ابن عم رسول الله ووزيره وآخر الخلفاء الراشدين.

اغتيال الحسن بن علي

بعد أن اغتال عبد الرحمن بن ملجم علياً كرم الله وجهه، دخل عليه جندب بن عبدالله فسأله فقال يا أمير المؤمنين، إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن. فقال علي: «لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر».

ثم دعا الإمام علي الحسن والحسين فقال: «أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما. وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة. وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم».

وقد بويع الحسن بن علي بالخلافة في الكوفة في شهر رمضان من سنة ٤٠هـ، بعد وفاة أبيه بيومين وقيل إن أول من بايعه، قيس بن سعد الأنصاري. قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المُحلِّين».

فقال له الحسن: «على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي على كل شرط» فبايعه وبايعه الناس وكلٌّ الذين بايعوه.

كان الحسن بن علي رجل صدق، قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة، وخاض غمرات الفتنة، على كره منه في أكبر الظن. قاوم

الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها، وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فدافعوا عن الخليفة يريدون حمايته. ولكن الخليفة قتل على رغم ذلك، لأن خصمه تسوَّروا عليه الدار.

ولم يفارق الحسن حزنه على عثمان، فقد روى الرواة أن علياً مرّ بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له: أسبغ الوضوء فأجابه الحسن بهذه الكلمة المرة: لقد قتلتم بالأمس رجلاً كان يسبغ الوضوء، فلم يزد عليّ على أن قال: لقد أطال الله حزنك على عثمان.

وقد مكث الحسن بعد البيعة حوالي شهرين لا يذكر الحرب ولا يظهر استعداداً لها، حتى ألح عليه قيس بن سعد وعبيدالله بن عباس، وكتب إليه عبيدالله بن عباس من مكة يحرّضه على الحرب، ويلح عليه في أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه.

ثم بلغه مسير معاوية في أهل الشام إليه في جيش قوامه ٦٠ ألف جندي، فتجهز هو وجيش الذين بايعوا علياً وعدته ٤٠ ألف مقاتل، ووصل الحسن إلى المدائن، وجعل قيس بن سعد قائداً على مقدمة الجيش. فلما نزل الحسن المدائن، نادى مناد من العسكر «ألا إن قيس بن سعد قتل فانفروا» فانطلقوا يهربون، وهاج الناس وماجوا، واقتحموا على الحسن فسطاطه فنهبوا متاعه حتى اختطفوا بساطاً كان تحته وطعنه الجراح بن الأسد فأصابه في فخذه ولم يصبه في مقتل. فتنهد الحسن وقال: «قتلتم أبي بالأمس ووثبتم عليّ اليوم تريدون قتلي».

فازداد لهم بغضاً ومنهم ذعراً ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيدة، فقال له المختار وهو شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال وما ذاك؟ قال تستوثق من الحسن[1] وتستأمن به إلى معاوية. فقال له عمه: عليك لعنة الله! أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوثقه؟! بئس الرجل أنت.

وتفرق أهل العراق عن الحسن - رضي الله عنه - ولم يستطع تأليف جيش منهم لمحاربة معاوية. فأرسل إلى معاوية في طلب الصلح فقال له الحسين: أنشدك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيه! فقال له الحسن: اسكت! أنا أعلم بالأمر منك.

وقرأ معاوية بن أبي سفيان كتاب الحسن الذي طلب فيه الصلح، ففرح فرحاً شديداً، وأحضر صحيفة وختم بختمه عليها، وطلب من الحسن أن يشترط ما يشاء.

وأعطوه ما أراد، أعطوه الأمان له ولأصحابه كافة، وأعطوه خمسة ملايين درهم كانت في بيت المال بالكوفة، وأعطوه خراج كورتين من كور البصرة ما عاش، وأن لا يشتم علياً فقبل معاوية كل الشروط ما عدا شتم عليّ على المنابر، ثم تراجع أيضاً عن إعطاء الحسن خراج إحدى الكور بالبصرة، وسلبها منه.

وغضب بعض أصحاب الحسن من الصلح فكانوا يقولون له: «يا عار المؤمنين» فيرد الرجل الصالح الساعي إلى حقن الدماء، والذي انفض عنه اصحابه وخانوه: «العار خير من النار».

(١) أي تقيِّده.

وكان بعضهم يقول له: السلام عليك يا مذل المؤمنين، فيرد الحسن: لم أذل المؤمنين، ولكن كرهت أن أقتلهم في طلب الملك.

وسلم الحسن الأمر إلى معاوية في النصف من شهر جمادى الأولى من سنة ٤١هـ فبايع الناس معاوية يومئذٍ وهو ابن ست وستين إلاّ شهرين.

ولحق الحسن بالمدينة، وراح الناس يبكون عند مسيرهم من الكوفة فقيل للحسن: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلاّ غلب. ليس منهم أحد يوافق آخر في رأي ولا هوى. مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر. لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً فليت شعري لمن يصلحون بعدي. وهي أسرع البلاد خراباً».

وفوجئ الحسن برسول معاوية يريد أن يرده إلى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه. فأبى الحسن أن يعود وقال: لقد صالحته وما أريد إلاّ حقن الدماء واجتناب الحرب.

وكان معاوية رفيقاً بالحسن، واصلاً له، ولكن معارضة الحسن كانت تبلغه، فيعاتبه فيها ليناً حيناً وشديداً حيناً ولكن مكان الحسن من معاوية لم يكن محبباً إليه، فقد كان معاوية رجلاً بعيد النظر، لم يكد يطمئن إلى الخلافة ويرى أنها قد اطمأنت إليه، حتى فكر في أن يجعلها تراثاً بعده لآل أبي سفيان، وكان يفكر في ابنه يزيد دائماً، فيرى أن الحسن هو الحائل بينه وبين ما يريد من ذلك. فهو قد تعجل الصلح مع الحسن فعرض عليه ولاية الأمر من بعده.

ومن الحق أن الحسن لم يقبل منه ذلك، وإنما اشترط عليه أن تكون الخلافة بعده شورى بين المسلمين، يختارون لها من أحبوا.

ولكن معاوية ظل يتدبر أمر الحسن حتى كان ما كان فقد دبروا مؤامرة للتخلص من الحسن، وذلك بالتواطؤ مع زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس - وفي رواية أنها كانت هند بنت سهيل بن عمرو سفير قريش يوم صلح الحديبية - فقد اتفقوا معها على أن تدس السم للحسن في بعض شرابه أو طعامه، مقابل مائة ألف دينار، وأن يزوجها من يزيد بن معاوية. وبالفعل وضعت زوجته له السم في الطعام. وسقط سبط رسول الله يصارع الموت. ودخل الحسين على الحسن في مرضه فقال الحسن: يا أخي، إني سقيت السم مرات ولكني لم أسق سماً أشد عليّ من هذا الذي سقيته هذه المرة، ولقد لفظت آنفاً قطعة من كبدي»

فقال الحسين: من سقاك يا أخي؟ قال الحسن: ما سؤالك عن هذا؟ أتريد أن تقاتلهم! كِلهم إلى الله.

وطلب الحسن أن يذهب الحسين إلى السيدة عائشة ليطلب منها أن يدفن بجوار جده ثم قال الحسن: وما أظن إلاّ القوم سيمنعونك إذا أردت ذلك، فإن فعلوا لا تراجعهم في ذلك وادفني في البقيع..

فلما بلغ مروان موافقة السيدة عائشة قال: كذب وكذبت والله لا يدفن هناك أبداً، منعوا عثمان من دفنه في المقبرة ويريدون دفن الحسن في بيت عائشة.

فلمـا توفي أرادوا دفنه حيث أوصى، فـقـام مـروان بن الحكم وجمع بني أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن يدفن إلى جوار جده، فـقـيل له:«إن أخاك قـال إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة.. وهذه فتنة» فسكت على مضض.

ولم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن إلاّ يسيراً حتى بايع ليزيد ابنه بالشام، وكتب ببيعته إلى الآفاق. لكن الحجاز امتنعت عن مبايعة يزيد.

فخف معاوية بنفسه إلى مكة وتوعد صحابة رسول الله قائلاً: أعذر من أنذر! إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الأشهاد فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بمقالة.. فأقسم بالله لئن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلاّ على نفسه!».

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهم سيف، وقال له: «إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفيهما».

ثم خرج بهم إلى المسجد وصعد المنبر، فقال: «هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلاّ على مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوه على اسم الله، فبايع الناس.

وكان للسم دوره، وللسيف دوره في تولية يزيد بن معاوية!.

اغتيال الزبير بن العوام

رغم أن الزبير بن العوام حاول اعتزال الفتنة بعد اندلاعها ومشاركته فيها، فإن الفتنة لم تعتزله وظلت تطارده حتى كانت السبب في اغتياله.

الزبير بن العوام أحد فرسان الإسلام الأوائل، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى الذي عينّهم الفاروق عمر بعد طعنه ليختاروا منهم خليفة للمسلمين.

وكانت هيئة الزبير وتكوينه، هيئة فارس قوي، نبيل. كان طويلاً إذا ركب تخط رجلاه الأرض، خفيف اللحية. وقال أبو نعيم كان ربعة، خفيف اللحم، أسمر أشعر لا يخضب.

كان يوم بدر على فرس، وكان لابساً عمامة صفراء، فنزلت الملائكة عليها عمائم صفر. وتقول السيدة عائشة:كان أبي - تعني أبا بكر الصديق- والزبير بن العوام الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح.

وكان الزبير أحد ثلاثة يهبون لنجدة النبي في أي موقف وهم: حمزة وعلي والزبير.

وكان الزبير بن العوام من الورع بحيث وصفه رسول الله بالشهيد. فعن أبي هريرة أن رسول الله كان على جبل حراء فتحرك مرتجفاً، فقال النبي: اسكن حراء فما عليك إلاّ نبي أو صدّيق أو شهيد، وكان عليه هو، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد.

وقال عمر بن الخطاب بعد طعنه: لو عهدت أو تركت تركة، كان أحبهم إلي الزبير.

وحتى علي بن أبي طالب قال عنه: حاربني خمسة: حاربني أطوع الناس عائشة، وأشجع الناس الزبير، وأمكر الناس طلحة بن عبيدالله، لم يدركه ماكر قط. وحاربني أعبد الناس محمد بن طلحة بن عبيدالله، كان محموداً حتى استزله أبوه، فخرج به، وحاربني أعطى الناس يعلى بن مُنّية، كان يعطي الرجل الواحد الثلاثين دينار والسلاح والفرس على أن يقاتلني.

ووصفه رسول الله فقال: «لكل نبيٍّ حواري، وإن حواريّ الزبير».

نشأ الفارس الزبير بن العوام في بيت الشرف. فوالده العوام ابن خويلد وعمته خديجة بنت خويلد زوج النبي، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله. ومات أبوه وهو صغير فكانت أمه تعلمه الشجاعة والفروسية. ضربته يوماً فقيل لها: قتلته، خلعت فؤاده، أهلكت هذا الغلام!

قالت صفية بنت عبد المطلب: إنما أضربه كي يلب، ويجر الجيش ذا الجلب. وكبر الزبير وهو يلب، ويجر الجيش ذا الجلب.

وكان من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام. وأول سيف سُلَّ في سبيل الله. فقد قيل في مكة إن محمداً قد قتل، فخرج الزبير وهو ابن اثنتي عشرة سنة شاهراً بسيفه ليضرب به قاتل رسول الله ولكن النبي قابله وسأله: ما لك يا زبير؟

قال: سمعت أنك قتلت.

فقال رسول الله ما كنت تصنع؟

قال الزبير: كنت أضرب بسيفي هذا من أخذك[1].

فدعا له النبي ولسيفه ثم انصرف.

هاجر الزبير بن العوام الهجرتين، وكان رسول الله يعتمد عليه في المهام الصعبة، ويكلفه بقيادة السرايا. وكان الزبير «جزاراً» وتاجراً عظيماً، يدير تجارة ناجحة وكان ثراؤه عريضاً فقيل يوماً:

- بمَ أدركت في التجارة ما أدركت؟

- قال الزبير: إني لم أشتر معيباً ولم أرد ربحاً والله يبارك لمن يشاء.

وذات يوم خرج الزبير بن العوام مع شيخ جاء من الموصل في بعض أسفاره فأصابته جنابة بأرض قفر فقال الزبير للشيخ: استرني. فستره فحانت منه التفاتة إلى الزبير فرآه مجدعاً بالسيوف فقال: والله لقد رأيت بك آثاراً ما رأيتها بأحد قط.

فتساءل الزبير: وقد رأيت ذلك؟ قال الشيخ: نعم

(١) قتلك.

قال الزبير: أما والله ما منها جراحة إلاّ مع رسول الله في سبيل الله.

وسأله ابنه عبدالله يوماً: لماذا تروي أحاديث قليلة عن رسول الله؟

فقال الزبير: كان بيني وبينه من الرحم ما قد علمت، ولكني سمعته يقول: من قال عَلَيَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده في النار.

وتعرض الزبير بن العوام للقتل غيلة، حينما خرج مع أهل الشام لقتال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فلما التقى الجمعان وجهاً لوجه ناداه الإمام علي:

- يا أبا عبدالله.. يا زبير

فخرج الزبير بن العوام من بين صفوف جيش أهل الشام. فانفرد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب به وقال له: يا زبير ما أخرجك؟

- قال الزبير بن العوام: أنت، ولا أراك لهذا الأمر[1] أهلاً ولا أوْلى به منا.

- فقال أمير المؤمنين علي: ألست له أهلاً بعد عثمان؟

- قال الزبير: نعم

- قال الإمام علي: لقد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا. أتذكر يا زبير يوم مررت مع النبي في بني غنم، فنظر إليّ وضحك وضحكت فقلت له: ألا يدع ابن أبي

(١) أي الخلافة.

طالب زهوه؟ فقال لك رسول الله: ليس به زهو يا زبير ألا تحب علياً؟ فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي ومن هو على ديني؟ فقال رسول الله: يا زبير والله لتقاتلنه وأنت له ظالم.

فصمت الزبير قليلاً ثم قال: نعم أذكر الآن، وكنت قد نسيت، ولو تذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً.

ورجع الزبير قرير العين، بعدما منّ الله تعالى عليه من بصيرة وهدى.

قال الزبير لأم المؤمنين عائشة: ما كنت في موطن منذ علقت إلاّ وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا.

فتساءلت عائشة بنت أبي بكر: فما تريد أن تصنع؟

قال الزبير: أريد أن أدعهم وأذهب.

فغضب ابنه عبدالله بن الزبير وقال: جمعت بين الغارين (العارين) حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب؟ لكأنك خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحمله فتية أنجاد، وأن تحتها الموت الأحمر. فجبنت، فأحفظه ذلك أني حلفت أن أقاتله.

قال الزبير لابنه: لم أجبن يوماً، كفّر عن يمينك.

قال الزبير لأصحابه: هيا.

فقالوا: إلى أين يا عبدالله؟

قال الزبير: إلى مدينة رسول الله، ألا ترون أن عمار بن ياسر بين جيش علي بن أبي طالب؟

إذن فنحن الفئة الباغية، لأني سمعت رسول الله يقول لعمار ابن ياسر: يا عمار تقتلك الفئة الباغية.

واعتزل الزبير بن العوام الفتنة لكن ابنه عبدالله استمر في محاربة الإمام علي، وظلّت الفتنة تطارده حتى اغتالته.

وذات يوم نزل الزبير بن العوام وادي السباع، فقام يصلي الظهر. ولحق عمرو بن جرموز بالزبير فنظر إليه الزبير فوجد الغدر في عينيه، فأسرع إلى ركوب فرسه ذي الخمار، فقال عمرو ابن جرموز: أذكرك الله.

فكف الزبير يده عنه، ولكن عمرو بن جرموز عاد إلى غدره ولاحق الزبير، فقال أبو عبدالله (الزبير):

- قاتله الله، يذكرنا الله وينساه؟

فأتاه عمرو بن جرموز من الخلف وهو يصلي فطعنه طعنة خفيفة، فالتفت إلى الزبير وكاد أن يقتله، فلما رأى ابن جرموز أن الزبير على وشك أن يهزمه نادى صاحبيه:

- يا نفيع، يا فضالة.

فحملوا عليه الثلاثة حتى قتلوه.

وكان ابن سبع وستين سنة، وحمل عمرو بن جرموز سيف الزبير إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فأمر بطرده وقال: سيف طالما والله جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله، بشّر قاتل ابن صفية بالنار.

ولم ينته الأمر عند هذا وإنما جاء أعرابي برأس الزبير إلى عليّ، فقال الإمام علي - حزيناً -: يا أعرابي تبوأ مقعدك من النار.

وقد كره ابن جرموز الحياة بعد اغتياله للزبير فذهب إلى عبدالله بن الزبير وطلب منه أن يقتص منه جزاء قتله لأبيه فقال عبدالله:

- أنا أقتل ابن جرموز بالزبير؟ ولا بشسع نعله!!

لكن روح الزبير ظلت تطارد ابن جرموز في منامه ويقظته، فانتحر!

اغتيال طلحة بن عبيدالله

وصفه رسول الله فقال «أنت طلحة الفياض» ذلك أنه اشترى بئراً بناحية الجبل، ونحر جزوراً، فسقى الناس وأطعمهم.

ولأنه كان يرى ما لا نرى فقد نظر إلى طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وقال: «طلحة والزبير جاراي في الجنة» فقد أراد طلحة - كالزبير - اعتزال فتنة الصراع الذي كان دائراً يوم موقعة الجمل، لكن سهام الفتنة طالته فاغتالته وألقته في فلاة من الأرض فعاش سخياً حميداً وقتل فقيداً.

وكان سخاؤه مضرب المثل في العرب: فعن موسى بن طلحة أن أباه - طلحة بن عبيدالله - أتاه مال من حضر موت سبعمائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته[1]: ما لك؟ فقال تفكرت فقلت: ما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته، قالت: فأين أنت من بعض أخلائك فإذا أصبحت فاقسمها، فقال طلحة: إنك موفقة. فقسمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي منها، وأعطى زوجته ما فضل، فكان نحو ألف درهم.

وكان طلحة يكفي ضعفاء بني تيم - أسرته - ويقضي ديونهم، ويرسل إلى عائشة كل سنة بعشرة آلاف.

(١) أم كلثوم بنت الصدّيق.

وقد نظر رسولنا الكريم إلى طلحة بن عبيدالله وهو يبتسم وقال: «هذا شهيد يمشي على وجه الأرض».

وأشار رسول الله إلى طلحة بن عبيدالله وقال: «لطلحة جواري في الجنة».

وذلك أنه يوم أُحد تلقى طلحة بن عبيدالله بيده ضربة سيف، وجهها أحد المشركين إلى وجه رسول الله وكان النبي بين درعين فلم يستطع النهوض، فحمله طلحة، فأنهضه حتى استوى على صخرة واستتر بها عن المشركين فقال الرسول لطلحة:

- هكذا.

وأومأ رسول الله بيده إلى وراء وأضاف:

- هذا جبريل يخبرني أنه لا يراك يوم القيامة في هول إلاّ أنقذك منه.

وقد أصيب طلحة في أُحُد بـ٧٥ ضربة سيف وطعنة رمح، وشجّ رأسه، وقطع (عرق النسا)، وشلت أصبعه فأغمي عليه، ورسول الله مكسورة رباعيته مشجوج في وجهه فقال لأبي بكر والزبير وعمر:

- عليكم صاحبكم (يعني طلحة) فقد نزف.

- ونظر النبي إلى طعنات السيوف في جسد طلحة وقال: مات..

وصعد رسول الله - بعد رجوعه - إلى المنبر وقرأ قوله تعالى ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾[1].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

فقام إليه رجل وتساءل:

- يا رسول الله من هؤلاء؟

فأقبل طلحة بن عبيدالله عليه ثوبان أخضران فقال عليه الصلاة والسلام وهو يشير نحو طلحة:

- أيها السائل، هذا منهم.

فنظر الناس نحو طلحة بن عبيدالله فأكمل رسول الله:

- من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة.

تزوج طلحة بن عبيدالله أربع نسوة، عند رسول الله أخت كل منهن: أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، والفارعة بنت أبي سفيان أخت رملة بنت أبي سفيان (أم حبيبة) ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة بنت زاد الركب.

وكان طلحة بن عبيدالله من أكثر الناس براً بأهله وأقربائه، فكان لا يدع أحداً من بني تيم، عائلاً إلاّ كفاه مؤنته ومؤنة عياله، وقضى دين المديونين، وزوّج الأرامل والمطلقات.

وقد سمّاه رسول الله طلحة الخير، وطلحة الفيّاض لأنه اشترى بئراً كان النبي يحب أن يشرب من مائها، وسماه أيضاً طلحة الجود لكثرة إنفاقه على الجنود.

ولما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى وتولى أبو بكر الخلافة كان يستشير أهل الرأي من أصحاب النبي مثل علي وعمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف.

وعندما طعن عمر، جعل طلحة من أهل الشورى الستة الذين مات رسول الله وهو عنهم راضٍ.

وكان طلحة بن عبيدالله من أثرياء قريش، فدخلت عليه زوجه سعدى بنت عوف المرّية، ذات ليلة فوجدته حزيناً شارداً فسألته:

- ما بك يا أبا محمد؟

فلم يحبها

فقالت: أرابك شيء من أهلك فنعتب؟

قال طلحة: نِعم حليلة المرء أنت، ولكن عندي مال قد أهمني أو غمّني.

قالت سعدى: اقسمه.

فدعا طلحة جاريته وقال لها: أدخلي علي قومي.

فدعت الجارية بني تيم فقسم المال (كان أربعمائة ألف) بينهم حتى ما بقي منه درهم

وقتل عثمان بن عفان.. وأطلت الفتنة بقرنيها، فانحاز طلحة إلى معاوية بن أبي سفيان وطالب بدم عثمان بن عفان. حيث أقنع معاوية أصحابه أن علياً يحول بينهم وبين إقامة حد خطير من حدود الله وهو القصاص. فكان كثير منهم - وعلى رأسهم طلحة - يقاتل لا غضباً لمعاوية، ولكن غضباً للدين الذي انتُهكت حرمته وعطلت حدوده، ولم يقم علي في تقويم ما اعوج من أمره وإصلاح ما فسد من سيرة الناس فيه.

ونظر الإمام علي بن أبي طالب نحو جيش معاوية فرأى أم المؤمنين عائشة في هودجها، ورأى طلحة بن عبيدالله والزبير بن

العوام حواريي رسول الله فحزن حزناً شديداً، ثم نادى على طلحة ابن عبيدالله، فلما خرج إليه من بين صفوف أهل الشام قال أمير المؤمنين علي له:

- يا طلحة أجئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت؟

فاستحى طلحة، ووقع بصره على عمار بن ياسر بين صفوف جيش أمير المؤمنين علي فتذكر قول رسول الله لياسر: «تقتلك الفئة الباغية».

فخرج طلحة من ساحة القتال، واعتزل الفتنة لكن الفتنة لم تعتزله.

ولكن مروان بن الحكم رأى في عيني طلحة نور الحق والهدى، فخشي أن يتبعه بعض من كان معه، لأنه «طلحة الخير»، أو أن ينضم طلحة إلى علي بن أبي طالب، فتسلل مروان خلفه، واغتاله بسهم أصاب رقبته وخرج من فمه.

وفي رواية: إن مروان تسلل خلف طلحة، ورماه بسهم في ركبته، فجعل الدم يسيل، فإذا أمسكوه استمسك، فإذا تركوه سال، فقال دعوه، فإنما هو سهم أرسله الله، فمات من ليلته.

ومر علي بن أبي طالب وطلحة ملقى في بعض الأودية، ملقى على وجهه بعد اغتياله، فنزل فمسح التراب عن وجهه، ثم قال: عزيز علي أبا محمد أن أراك مجندلاً في الأودية. ثم رفع الإمام علي يديه وقال: إلى الله أشكو عُجري وبُجري(١).

(١) أي أشكو إلى الله همومي وأحزاني وغمومي التي تموج بداخلي.

وفي رواية لليث: إن علياً انتهى إلى طلحة وقد مات، فنزل وأجلسه ومسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه ويقول: ليتني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

وقد دفن طلحة بن عبيدالله على شاطئ قريب من مرفأ للسفن فرأى بعض أهله أنه أتاه في المنام فقال: ألا تريحوني من هذا الماء، فإني قد غرقت. فنبشوا قبره فإذا هو أخضر كأنه السلق، فنزعوا عنه الماء فاستخرجوه، فإذا ما يلي الأرض من لحيته ووجهه قد أكلته الأرض. فاشتروا له داراً من دور آل أبي بكرة، بعشرة آلاف فدفنوه فيها.

وقد ترك طلحة ثروة لورثته تقدر بألف ألف ومائتي درهم - مليون ومائتي درهم - ومائتي ألف دينار.

اغتيال محمد بن أبي بكر

حسبه شرفاً أن يكون ابن الصديق وأخا عائشة أم المؤمنين، وهو بعد هذا كله فتى قرشي يعتز بما كانت قريش تعتز به، ويعتد بمكانته من أبيه الذي كان أحب الرجال إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أخته التي كانت أحب النساء إلى النبي.

ولكنها الفتنة! فقد نقم محمد بن أبي بكر الصديق ما كان ينقمه البعض على ذي النورين عثمان بن عفان، من توليته لأقربائه، وفتح خزائن الدولة لهم، وغيرها. فقاد أضخم حركة معارضة في تاريخ الإسلام، والتي أدت في النهاية إلى اغتيال الخليفة عثمان، ثم اغتيال محمد بن أبي بكر نفسه.

خرج محمد بن أبي بكر إلى مصر، ولم يكد ينزل فيها حتى أحس عبدالله بن سعد والي مصر أنه لم يقبل لخير، فأنذره وحذره، ولكنه لم يحفل بنذير ولا بتحذير وخرج عبدالله بن سعد للقاء الروم من «ذات الصواري»، فخرج معه محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة اللذان كانا يقودان حركة المعارضة ضد عثمان في مصر، لكنه أعادهما إلى مصر في سفينة ليس فيها أحد من المسلمين، إشفاقاً منهما على الجيش.

ويقال إن محمد بن أبي بكر مرض فأقام بمصر ولم يخرج وخرج محمد بن أبي حذيفة. وقد كتب النصر في هذه الموقعة للمسلمين، وعاد عبدالله بن سعد ظافراً بقهر أسطول الروم، ولكنه عاد وقد أفسد عليه ابن أبي حذيفة جيشه بما أظهر من النكير عليه وعلى خليفته، وبما كان يقول للمحاربين من أنهم يسعون إلى الجهاد، والجهاد وراءهم في المدينة حيث يقيم عثمان فيسوس الأمة على غير كتاب الله وسنة رسوله وسياسة صاحبيه، ويعزل أصحاب النبي عن العمل، ويولي أمور المسلمين جماعة من الفُسَّاق وأصحاب المجون وانظروا إلى واليكم وقائدكم إلى الجهاد، إنه رجل نزل القرآن بكفره، وأهدر النبي دمه، ولكن عثمان يوليه أمركم على ذلك لأنه أخوه في الرضاعة.

كان ابن حذيفة يذيع هذا في الجيش، وكان محمد بن أبي بكر يذيع هذا في مصر كلها. وقد أخذ المصريون بعد عودة الجيش يجتمعون إليهما ويسمعون منهما فأشفق منهما عبدالله بن سعد وشكاهما إلى عثمان واستأذنه في البطش بهما، فأرسل عثمان بن عفان عمار بن ياسر إلى مصر ليعلم به حقيقة هذين الفتيين، ولينصح لهما ويردهما إلى الهدوء، وليعلم له علم عبدالله بن سعد نفسه. فلم يكد عمار بن ياسر يصل إلى مصر حتى انضم إلى هذين الفتيين. وجعل يحرض معهما على عثمان حتى ضجَّ من ذلك عبدالله بن سعد، فكتب إليه عثمان ينذره ويلومه ويأمره بأن يرفق بعمار ويرده إلى المدينة مكرماً موفوراً، وبأن يترك محمد بن أبي بكر لأبيه الصديق وأخته أم المؤمنين وبأن يترك محمد بن أبي

حذيفة فهو ابنه وربيبه وفرخ قريش. وما زال محمد بن أبي بكر في مصر يذيع فيها دعوة المعارضة، حتى استجاب له خلق كثير، وحتى كان المصريون أشد الناس خلافاً لعثمان وخروجاً عليه.

وعاد محمد بن أبي بكر إلى المدينة ومعه نفر كثير من أهل مصر، وراحوا يشكون إليه واليه على مصر.

وقاد محمد بن أبي بكر المجموعة التي تسوّرت على الخليفة عثمان بيته بغرض قتله، وأمسك بلحية ذي النورين، الذي ذكره بأبيه أبي بكر فاستحى محمد وتركها. وابتعد وقام الباقون بقتل الخليفة.

وقالت بعض الروايات إن محمداً قتل عثمان، لكنها روايات غير صحيحة لأن علياً بن أبي طالب سأل محمد بن أبي بكر: أأنت قاتل عثمان؟ فأنكر وأقرته على ذلك نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان.

وانضم محمد بن أبي بكر إلى جانب الإمام علي في خلافه مع معاوية، حيث إن الإمام علي هو الذي قام بتربيته بعد زواجه من أمه أسماء الخثعمية زوج أبي بكر الصديق. وكان الإمام علي قد ولّى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري أمر مصر، وكان لهذا الأمر كفئاً ولهذا العبء حاملاً. لكنه تقاعس عن حرب رافضي البيعة لعلي والمجاهرين بالعداء له. فعزله عليّ، وولّى مكانه محمد بن أبي بكر. ودعا محمد أولئك المعتزلة إلى الطاعة، فلما أبوا آخذ في حربهم، فأرسل إليهم جنداً لم يلبث أن انهزم، وأرسل إليهم جيشاً آخر لم يلبث أن انهزم أيضاً وثار لهؤلاء الناس قوم من أنصارهم. وظهرت

الدعوة للثأر لعثمان في مصر. واضطرب أمر الإقليم وعرف علي ذلك فولى الأشتر النخعي على مصر وعزل عنها محمد بن أبي بكر. ولكن الأشتر لم يكد يصل إلى القلزم حتى مات. ثم جهّز معاوية جيشاً لغزو مصر وأمّر عليه عمرو بن العاص. واضطر علي إلى أن يثبت محمد بن أبي بكر في ولايته ويأمره بالحذر والاحتراس ويعده بإرسال المال والجند.

ولكن كان معاوية أسبق حيث سيّر معاوية بن حديج إلى مصر لحرب محمد بن أبي بكر، والتقى الجمعان فهزمه ابن حديج وانهزم عسكر محمد واختفى هو بمصر في بيت امرأة فوشت به فقال: احفظوني لأبي بكر. فقال معاوية بن حديج: قتلت ثمانين رجلاً من قومي من دم عثمان، وأتركك وأنت صاحبه - أي صاحب علي - فقتله ابن حديج وهو ظمآن، ووضعوه في جوف حمار ميت، ثم شووه. وهذا بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر. وأشهدوا على التمثيل به السفلة والصبيان ثم أرسلوا قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به، وشوت أخت معاوية بن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة - في ذلك العيد - وهي توصي الرسول أن يقول لها: هكذا كان شيّ أخيك، فلم تأكل السيدة عائشة بعدها «شواء» قط، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله.

اغتيال محمد بن مسلمة

«لا تضره الفتنة» هكذا بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابي محمد بن مسلمة. فكانت نبوءة النبي له بشارة باعتزاله للفتن. لكن ذلك أيضاً - اعتزاله الفتن - كان السبب في أن يقضي نحبه مغتالاً على يد أحد المتعصبين لمعاوية.

وقد شهد محمد بن مسلمة بدراً والمشاهد بعدها، واستخلفه النبي على المدينة مرة، في غزوة تبوك، وآخى بينه وبين أبي عبيدة ابن الجراح.

وهو صاحب الموقف الشهير عندما قتل كعب بن الأشرف طاغية اليهود، الذي خان عهده مع المسلمين، وراح يؤلب قريشاً ويحرضها على العرب، ويقول عن قتلى بدر من المشركين: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله؟

فقام محمد بن مسلمة فقال يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟

قال «نعم» فدبر محمد بن مسلمة خطة لقتل الطاغية اليهودي حتى استمكن منه.

وقد استعمله عمر على جمع زكاة جهينة ثم سأله الفاروق: كيف تراني؟ فقال محمد: أراك كما أحب، وكما يحب من يحب لك الخير، قوياً على جمع المال، عفيفاً عنه، عدلاً في قسمه، ولو مِلْتَ عدَّلناك كما يُعدَّل السهم في الثقاف. فقال عمر: الحمدلله الذي جعلني من قوم إذا مِلْت عَدَّلوني.

وكان عمر يستعمله كرئيس لمخابراته العُمرية، فإذا شُكي إليه أحد ولاته، أنفذ محمداً إليه ليكشف أمره.

ولما نشبت الفتنة، وأطلَّت برأسها اعتزل محمد بن مسلمة وسكن الرَّبذة. فعن أبي بردة قال: مررنا بالرَّبذة، فإذا فسطاط محمد بن مَسْلمة، فقلت: لو خرجت إلى الناس فأمرت ونهيت؟ فقال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «يا محمد ستكون فُرقة، وفتنة واختلافاً، فاكسر سيفك، واقطعْ وتَرَك، واجلس في بيتك» ففعلت ما أمرني به.

وعن حذيفة قال: «ما من أحد إلاّ وأنا أخاف عليه الفتنة إلاّ ما كان من محمد بن مسلمة، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تضره الفتنة».

وعن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى محمد بن مسلمة سيفاً فقال: «قاتل المشركين، فإذا رأيت المسلمين قد أقبل بعضهم على بعض، فاضرب به أُحُداً[١] حتى تقطعه، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية».

---

(١) أي صخرة من جبل أحد.

فلما قتل عثمان خرج إلى صخرة فضربها بسيفه حتى كسره ثم اتخذ لنفسه سيفاً من خشب، وصيّره في الجفن في داره، وقال: علَّقته أهيب به ذاعراً.

ورغم أن محمد بن مَسْلمة كان أسود طويلاً عظيماً، فإن يد الاغتيال لم تتركه حتى يدافع عن نفسه.

فعن جابر بن عبدالله قال:

قدم معاوية ومعه أهل الشام، يعني إلى المدينة، فسمع رجل شقي من أهل الأردن بجلوس محمد بن مسلمة عن مناصرة علي أو معاوية فلم يعجبه موقفه فاقتحم عليه داره، واغتاله وهو نائم.

اغتيال الأشتر

«إن مصر لا يصلح لها إلاّ أحد رجلين هذا الذي عزلناه - قيس ابن سعد - والأشتر».

هكذا علّق الإمام علي رضي الله عنه عندما أرسل الأشتر النخعي لتولي ولاية مصر بعد عزل قيس بن سعد. فقيس كان سياسياً يتعامل مع الأمور بحنكة وصبر. والأشتر كان صلباً كالحديد.

اسمه مالك بن الحارث، شريف كبير القدر في النخع. ترجم له الذهبي في «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» فقال: روى عن عمر، وخالد بن الوليد، وشهد اليرموك، وقلعت عينه يومئذٍ. وكان ممن ألّب على عثمان، وسار إليه، وأبلى شراً. وكان خطيباً بليغاً فارساً. حضر صفين، وكاد أن يهزم معاوية، فحلّ عليه أصحاب علي لما رأوا المصاحف على الأسنة، فوبّخهم الأشتر، ولكن لم يقدر على مخالفة الإمام عليّ وكفّ بقومه عن القتال.

وقد نظر عمر بن الخطاب إلى الأشتر، فصعّد فيه عمر النظر، ثم صوّبه، ثم قال إن للمسلمين من هذا يوماً عصيباً.

وقد اضطربت الأمور في مصر، فأرسل علي بن أبي طالب، بعد انصرافه من صفين الأشتر ليكون والياً على مصر.

وحمل الأشتر عصا ورحل إلى مصر. ولكنه مات فجأة في القُلْزم على حدود مصر. فضحك عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وهما يقولان «إن لله جنوداً من عسل».

وأكثر المؤرخين يتحدثون عنه أنه اغتيل بالسم وأن معاوية أغرى صاحب الخراج من القُلزم - وقيل بالعريش - وحطّ عنه الخراج ما بقي، إن احتال في موت الأشتر، وأن هذا الرجل دسّ للأشتر سُماً في شربة عسل فقتله ليومه أو لغده.

وقيل إن عبداً لعثمان لقيه فسمّ له عسلاً وسقاه، فقال عمرو ابن العاص: إن لله جنوداً من عسل.

لم يكن الإمام علي معجباً بالأشتر النخعي، بل كان يتبرّم بصلابته ويكرهها، لأنه كان صعب المراس، فلما بلغه موته قال: للمنخرين والفم.

ورغم هذا عندما نعي إليه الأشتر قال الإمام علي: إنا لله، مالك، وما ملك وكل هالك، وهل موجود مثل ذلك، لو كان من حديد لكان قيداً، أو كان من حجر لكان صلداً، على مثل ما لك فلتبكي البواكي.

اغتيال مروان بن الحكم

إنه مروان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي الذي أخلص لأمويته حتى تحولت إلى عصبية قبلية، أصبح هو رمزاً لها.

ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء فقال:

روى عن عمر وعثمان، وعلي، وزيد. وكان كاتب ابن عمه عثمان، وحامل خاتمه، فخانه، وأجلبوا بسببه على عثمان، ثم نجا هو وسار مع طلحة والزبير للطلب بدم عثمان، ونجا - لا نُجّي - ثم ولي المدينة غير مرة لمعاوية. وكان أبوه قد طرده النبي إلى الطائف، ثم أقدمه عثمان إلى المدينة لأنه عمه، ولما هلك ولد يزيد، أقبل مروان، وانضم إليه بنو أمية وغيرهم، وحارب الضحاك الفهري، فقتله، وأخذ دمشق، ثم مصر، ودعي بالخلافة، وكان ذا شهامة، وشجاعة، ومكر، ودهاء، أحمر الوجه، قصيراً، دقيق العنق، كبير الرأس واللحية، يلقب: خيط باطل.

استولى مروان على الشام ومصر تسعة أشهر، ومات خنقاً من أول رمضان سنة ٦٥هـ، وعقد لولديه عبد الملك وعبد العزيز بعده».

كان مروان بن الحكم أهم أسباب الفتنة التي أدّت إلى مقتل عثمان، فعندما طلب الثائرون من المصريين من الخليفة عثمان معاقبة واليه على مصر، أجابهم عثمان، وقام بتغييره وتولية محمد بن أبي بكر مكانه، وأرسل كتاباً بهذا إلى واليه على مصر. فمزق مروان بن الحكم الكتاب وكتب لوالي مصر: أن اثبت في ولايتك، واقتل محمد بن أبي بكر وختم الرسالة بخاتم عثمان فاعتبرها الثوار خيانة، وطالبوا بقتل الخليفة أو تسليم مروان لهم لكنه رفض تسليم مروان. واختبأ مروان عند السيدة عائشة، وكان الخليفة عثمان قد فرض له خمس خراج المغرب، وهو ما أثار الناس ضده.

كان مروان بن الحكم أموياً قد أنسته أمويته كل شيء، حتى دينه، فلم يتورع عن قتل صاحب رسول الله (ص) طلحة بن عبيدالله - رغم أنه كان قد اعتزل الحرب بين علي ومعاوية - وكاد يشعلها حرباً عندما همّ الحسين بدفن أخيه الحسن بجوار جده بناء على وصية الحسن، وقال: إن أخاك قال «إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة... وهذه فتنة» فسكت الحسين على مضض!

وأراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد، فلباه أهل الشام وكتب بيعته إلى الآفاق، ثم همّه أمر الحجاز فكتب إلى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالإباء، لأنه كان يتطلّع إلى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد، لما اشتهر به من نقص وعبث.

فعزله معاوية وولّى سعيد بن العاص مكانه، فلم يجبه أحد إلى ما أراد. وبعد وفاة معاوية تولى يزيد الخلافة، وكتب إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان «أن خذ حسيناً، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، بالبيعة أخذاً شديداً، ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام. فبعث الوليد إلى مروان بن الحكم يستشيره، وكان مروان يريد الخلافة لنفسه، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بني أمية، فإن خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين.

فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين: ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطنها السعي إلى الخلاص من يزيد ومنافسيه فقال: «أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة، أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال، ولكن عليك بالحسين وعبدالله بن الزبير، فإن بايعا، وإلاّ اضرب عنقهما».

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد.. ثم الخلاص من يزيد نفسه بإثارة النفوس وإيغار الصدور عليه.

فيرفض الحسين المبايعة قائلاً: مثلي لا يبايع سراً، ثم انصرف الحسين ومروان غاضب صامت لا يتكلم. ثم صاح بالوليد «عضيتني والله لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبسه فإن بايع وإلاّ ضربت عنه».

فقال الوليد «أتشير عليّ بقتل الحسين؟! والله إن الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله».

لم يتـورّع مــروان بن الحكم حــتى عن النصح بقــتل ابن بنت رسول الله (ص) لأنه كان لا يفكر في الآخرة.

وكان من الطبيـعي أن يموت «مخنوقاً» على يد أعـدائه الذين اختصموا معه حتى الموت!

اغتيال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

ويبدو أن شعار «إن لله جنوداً من عسل» أصبح شعار الفتنة، حيث لم يسلم عدد كبير منه، وكان وسيلة للقتل غيلة، حتى أن كبار أبطال الإسلام قتلهم «جنود العسل المسموم».

فعبد الرحمن بن خالد بن الوليد كان بطلاً كأبيه سيف الله. أدرك عبد الرحمن النبي صلى الله علي وسلم ورآه وشهد اليرموك مع أبيه. وسكن حمص بسوريا. وكان معه لواء معاوية يوم صفين. وكان شريفاً شجاعاً ممدحاً. يستعمله معاوية على قيادة الجيوش لغزو الروم. كان عمره يوم اليرموك ١٨ سنة. وكان قائد كتيبة. وقد ولي إمارة حمص مدة وكان مشكور السيرة.

وقد اتفق ابن الأثير والطبري على رواية واحدة عن اغتيال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد «وكان سبب موته - كما جاء في ابن الأثير - أنه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه. ولغنائه من بلاد الروم ولشدة بأسه، فخافه معاوية وخشي منه، وأمر الطبيب ابن آثال النصراني أن يحتال في قتله، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دسّ له ابن آثال شربة

عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص. فوفّى له معاوية بما ضمن له، وقدم خالد بن الوليد المدينة فجلس يوماً إلى عروة بن الزبير فقال له عروة: ما فعل ابن آثال - يُعرِّض به ويسخر منه - فقام من عنده وسار إلى حمص فقتل ابن آثال. فحمل إلى معاوية فحبسه أياماً ثم غرّمه ديّته، رجع خالد إلى المدينة فأتى عروة فقال عروة: ما فعل ابن آثال؟ فقال: قد كفيتك ابن آثال، ولكن ما فعل ابن جرموز يعني قاتل الزبير فسكت عروة!».

وسبق الطبري فقال: ذكر ابن جرير أن رجلاً يقال له ابن آثال - وكان رئيس الذمة - سُقي شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح، ورثاه بعضهم فقال:

أبوك الذي قاد الجيوش مغرباً
إلى الروم لما أعطت الخرج فارس
وكم من فتى نبهته بعد هجعة
بقرع لجام وهو أكتع ناعس
وما يستوي الصفان صف لخالد
وصف عليه من دمشق البرانس

وقد ذكروا أن خالد بن عبد الرحمن بن خالد قدم المدينة فقال عروة بن الزبير: «ما فعل ابن آثال»؟ فسكت: ثم رجع إلى حمص فثار على ابن آثال فقتله فقال: قد كفيتك إياه. ولكن ما فعل ابن جرموز؟ فسكت عروة ومحمد بن مسلمة في قول «وهكذا اغتيل عبد الرحمن بن خالد وهو في أوج مجده وسمعته بين قوم أعجبوا

من قبله بأبيه، ويوشك أن يتجمع حوله الناقمون من أهل الشام وأهل الكوفة والحجاز. وذلك لأنه رُشّح للخلافة بعد معاوية دون يزيد!

وقد حمل هذا الاتهام أيضاً خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد - وكان شاعراً شريفاً - اتهم معاوية بأن يكون سقى عمّه عبد الرحمن بن خالد سماً فنابذ[1] بني أمية ووقف ضدهم مع ابن الزبير.

(١) نابذ: خاصم.

اغتيال عمر بن عبد العزيز
خامس الخلفاء الراشدين

إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها، فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله» هكذا علّق الإمام أحمد بن حنبل على سيرة خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز.

لكن الأمر تطور بحيث تجاوز ذكر السيرة ولو بغير المحاسن إلى استخدام السم ضيقاً بعدل هذا الخليفة الراشد، والفقيه الذي كان يمتلك ناصية الفقه والحديث.

عمر بن عبد العزيز المجدد الأول لشباب الإسلام على رأس المائة الأولى، أقبلت عليه الدنيا بخيلها ورجلها فأعرض عنها، رغبة في النعيم المقيم. وفي سنتين وخمسة أشهر ملأ الأرض عدلاً، بعد أن ضجّت بالظلم والجور. لم يحتمله الظالمون، وسقوه السم جرعة واحدة فمات شهيداً، وعادت الأرض سيرتها الأولى.

ظهرت على عمر علامات النباهة منذ الصغر، فختم القرآن، ولم يشتغل بما يشتغل به الأمراء من الترف والثراء، ولكنه طلب الشرف الحقيقي والعز الدائم، فرحل إلى مدينة رسول الله وجالس فقهاء المدينة، وأخذ من علمهم وهديهم وسمتهم. ولم

يتطلع يوماً للخلافة ولم يكن من نسل أهل الخلافة، فقد كان من ولد عبد العزيز بن مروان، وكانت الخلافة من نسل عبد الملك بن مروان، ولكن الله اختاره لها، لتبرق الأرض بشعاع من نور العدل الإلهي. فقد ردّ عمر المظالم، واستعمل أهل الخير والصلاح، وعزل أهل الجور والفساد، حتى صار استعماله للرجل[1] عديلاً له عند أئمة الجرح والتعديل يقولون: استعمله عمر بن عبد العزيز، فأعزّ الله به الملة، ورفع منار السنّة وأخمد نار البدعة، فصار أهل البدع مقهورين أذلاء، لا يجرأون على الجهر ببدعتهم وأمر بكتابة الحديث وجمعه، فكثر الخير، وعمّ الصلاح، وانتظمت أمور العباد.

ولد عمر بن عبد العزيز في حلوان بمصر عام ٦١ - وقيل ٦٣هـ - وكان أبوه أميراً عليها، وأمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. كان الخليفة الراشد أسمر، رقيق الوجه، حسنه، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بوجهه أثر قديم لرفسة دابة. فقد دخل اصطبل أبيه وهو غلام، فرفسه فرس فشجّه، فراح أبوه يمسح عند الدم ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذن لسعيد.

يقول السيوطي: جمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير وبعثه أبوه إلى المدينة يتأدب بها، فكان يذهب إلى عبيدالله بن عبدالله يسمع منه العلم، فلما توفي أبوه طلبه عبد الملك بن مروان

(١) أي توليته لأمر من أمور الخلافة.

إلى دمشق، وزوّجه ابنته فاطمة، وكان قبل الخلافة من الصالحين أيضاً، إلاّ أنه كان يبالغ في التنعم، فكان الذين يعيبونه من حُسّاده لا يعيبونه إلاّ بالافراط في التنعم، والاختيال في المشية، فلما ولي الوليد الخلافة أمّر عمر على المدينة، فوليها من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين. وعُزل فعاد إلى الشام. ثم إن الوليد عزم على أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد، وأن يعهد لولده، فأطاعه كثير من الأشراف طوعاً وكرهاً، وامتنع عمر بن عبد العزيز، وقال لسليمان: في أعناقنا بيعة. وصمم، فطيّن عليه الوليد أي أدخله حجرة وسد جميع منافذها بالطين حتى يموت جوعاً - ثم شفع فيه بعد ثلاثة أيام، فأدركوه وقد مالت عنقه. فعرفها له سليمان وحفظها له.

وعن رجاء بن حَيْوة قال: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خُضْراً من حرير، ونظر إلى المرآة فقال: أنا والله الملك الشاب، فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة، فلم يرجع حتى مرض وتوعك، فلما ثقل عليه المرض كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب وهو غلام لم يبلغ. فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين! إنه مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح. فمزق الكتاب ثم أشار عليه بتولية عمر بن عبد العزيز الخلافة، وقال عبد الملك: ولئن وليته ولم أولّ أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلاّ أن أجعل أحدهم بعده. فجعل يزيد بن عبد الملك ولي عهده حتى يسكتوا عنه.

لكنهم لم يسكتوا عنه وراحوا يتربصون به الدوائر.

ولما دفن عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدّة أو رجّة فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قُربت إليك لتركبها. فقال: ما لي ولها! أبعدوها عني. قرّبوا إلي بغلتي. فقربت إليه بغلته فركبها، فجاء صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة. فقال: تنح عني ما لي ولك، وإنما أنا رجل من المسلمين. فسار وسار معه الناس فقال: أيها الناس «إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين. وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم».

فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك. فتولّ أمرنا باليُمن والبركة. فلما رأى الأصوات قد هدأت رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: «يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له.. أطيعوني ما أطعت الله. فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم».

وتصف ورعه وخشيته فاطمة بنت عبد الملك (زوجته) لم أرَ من الناس أحداً كان أشد خوفاً من ربه من عمر، كان إذا دخل البيت ألقى نفسه في مسجده، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ فيفعل ذلك ليلته أجمع.

وقول ابن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن لم تُخلق إلاّ لهما.

وعن عطاء بن رباح قال: حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز أنها دخلت عليه فإذا هو في مصلاه يده على خده، سائلة دموعه.

فقلت: يا أمير المؤمنين ألشيء حدث؟ قال: يا فاطمة إني تقلدت أمر أمّة محمد فتفكرت في الفقير الجائع. والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمهم دونهم محمد (ص) فخشيت أن لا تثبت لي حجة من خصومته فرحمت نفسي فبكيت.

ولم تعجب هذه السيرة بنو مروان فاجتمعوا على باب عمر بن عبد العزيز، وجاء عبد الملك بن عمر ليدخل إلى أبيه فقالوا له: إن من كان قبله من الخلفاء يعطينا ويعرف لنا موضعنا، وإن أباك قد حرمنا ما في يديه. فدخل عبد الملك على أبيه فأخبره بما قالوا فقال عمر: قل لهم، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم.

وكان عمر بن عبد العزيز فقيهاً حليماً. فقد كتب إليه عبد الحميد بن عبد الرحمن يقول رُفع إلي رجل يسبك، فهممت أن أضرب عنقه فحبسته، وكتبت إليك لأستطلع في ذلك رأيك. فكتب إليه لو قتلته لاقتدتك[1] به. إنه لا يُقتل أحد بسباب أحد إلاّ من سبّ النبي فاشتمه إن شئت، أو خل سبيله.

(١) أي لقتلتك.

إن عمر بن عبد العزيز كان نفحة من عدل الله، نُثرت على الأرض، ففاح عبيرها ثم صعدت إلى أصلها.

فلم يكد عمر بن عبد العزيز يأخذ ما في يد الأغنياء ليعطيه للفقراء، حتى كانت المؤامرة باغتياله.

فقد توفي عمر بن عبد العزيز - بدير سمعان من أعمال حمص في آخر رجب عام ١٠١هـ وعمره تسع وثلاثون سنة وستة أشهر، وكانت وفاته بالسم، كانت بنو أمية - كما يقول تاريخ الخلفاء - قد تبرموا به، لكونه شدّد عليهم، وانتزع من أيديهم كثيراً مما غصبوه، وكان قد أهمل التحرّز، أي لم يهتم بسلامته.

قال مجاهد: قال لي عمر بن عبد العزيز: ما يقول فيّ الناس؟ قلت يقولون مسحور. قال: ما أنا بمسحور وإني لأعلم الساعة التي سقيت فيها، ثم دعا غلاماً له فقال له: ويْحك ما حملك على أن تسقيني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها، وعلى أن أعتق قال هاتها. قال: فجاء بها فألقاها في بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد.

وعن عبيد بن حسان قال: لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: اخرجوا عني، فلا يبقَ عندي أحد، وكان عنده مَسلمة بن عبد الملك قال: فخرجوا فقعد على الباب هو وفاطمة، فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه، ليست بوجوه إنس ولا جان. قال: ثم قال: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علُواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[1]، ثم هدأ الصوت. فقال مسلمة لفاطمة: قد قُبض صاحبك، فدخلوا فوجدوه قد قبض، وغُمّض وسوي.

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

ويقول ابن الجوزي في سيرة عمر «بلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، عظْني قال: بما رأيت أو بما سمعت؟ قال: بما رأيت. قال: مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وترك أحد عشر ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً، كُفّن منها بخمسة دنانير، واشتري له موضع قبره بدينارين، وقُسّم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً. ويقارن عبد الرحمن بن القاسم فيقول ولما مات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف (أي مليون) ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد تصدّق بمائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولِد هشام يُتصدق عليه.

اغتيال الإمام أبي حنيفة

قالوا عنه: «الإمام الأعظم - وفقيه أهل العراق وإمام أهل الرأي ومخ العلم».. و«إنه الفقيه». لكن ذلك لم يشفع له عند السلطة العباسية التي سقته السم غيلة وظلماً، فقتلت الإمام أبي حنيفة أول أئمة الفقه الأربعة والفقيه العاقل الذي فتح باب الفقه العقلاني في الإسلام.

قضى أبو حنيفة معظم حياته في عهد الدولة الأموية، ثم شهد جانباً من عهد الدولة العباسية، فقد ولد في زمن ولاية الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وتوفي في ولاية الخليفة العباسي الأول أبي جعفر المنصور.

وهذا العصر الذي شهده أبو حنيفة يمتاز بكثرة الاتجاهات الدنيوية والدينية، والحركات الفكرية والسياسية، فقد حوّل الأمويون الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، ومن وراء ذلك حدثت فتن واضطرابات، وظهرت النزعة العربية القومية الواضحة في العصر الأموي، وبدرت بوادر من التعصّب على غير العرب، واشتدت الوطأة حيناً على الموالي، وتهيأ المجتمع لألوان من المؤامرات والدسائس وظهر الاضطهاد لآل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم.

ثم أقبل العصر العباسي، فإذا الصراع يشتد بين العباسيين والعلويين، وإذا النزعة الأعجمية تظهر «كرد فعل» على النزعة العربية القومية السابقة، وإذا النحل والمذاهب تتكاثر، واتسع الاتصال بالفلسفة اليونانية والفكرين: الفارسي والهندي، عن طريق التوسّع في الترجمة.

وكان المجتمع على عهد أبي حنيفة يضم كثيرين من شعوب مختلفة، ففقد التجانس والتناسق، فهناك عرب، وعجم، وفرس، وروم، وهناك الموالي والجواري.

واتسعت الحياة المادية والاجتماعية بعد أن فتح الله تعالى على العرب والمسلمين ما فتح من أقطار الدنيا وخيرات الحياة، وكانت هناك محاولات للتوفيق بين حياة المجتمع والنصوص الدينية، فكثرت الأقوال في الفقه الإسلامي، وظهرت الآراء والمذاهب، وبرز في الحياة العلمية والدينية منهجان:

- أولهما: منهج النقل، أو مذهب أهل الحديث، وهو المنهج الاتباعي. وكان من الطبيعي أن يكون لهذا المنهج أنصاره الكثيرون، بمقتضى الحرص الشديد من المسلمين على تتبع كل ما قاله الرسول الأمين، أو فعله، أو أقرّه، لأنه المثل الأعلى، والقدوة المثلى.

- ثانيهما: منهج العقل، أو مذهب أهل الرأي، وهو المنهج الذي يضيف إلى تقبّل النص واحترامه إعمالاً للفكر، واستنباطاً للحكم، واجتهاداً في تفسير النص.

ولم ينشأ أبو حنيفة على هامش هذا المجتمع، أو في زاوية من زواياه، بل عاش في قلبه وصميمه وعاصمته، عاش في بغداد التي

تموج بالعلم والعلماء، والبحث والباحثين، والجدل والمجادلين، والتيارات المتعددة أحياناً والمتضاربة أحياناً أخرى.

ومن الطبيعي أن يغلب على العراق المنهج العقلي، بينما غلب على «المدينة» وما حولها المنهج النقلي، أو مذهب أهل الحديث والنقل فقد ظلّت المدينة ردحاً طويلاً من الزمن تمثّل صخرة المقاومة أمام التيارات الاجتماعية والمادية الوافدة مع توالي الفتوح وتكاثر الأجناس لبساطة الحياة فيها بالنسبة إلى غيرها، ولوثاقة اتصالها بسُنّة الرسول صلى الله عليه وسلم، ففيها كان محياه، وفيها استقر مثواه، وإلى جوار قبره أقام الكثيرون من أهل الصدر الأول، يستمسكون بالذي هداهم إليه الرسول من سُنّة أو أثر، ويعضون على ذلك النواجذ.

أما العراق فقد نشأت فيه خلافة ودولة ومجتمع كبير، وهذا كله يحتاج إلى قوانين ونظم وأحكام، فلا بدّ من النظر والتفكير، ومن حول العراق بلاد غير إسلامية، والعلاقات بينه وبين هذه البلاد تحتاج إلى إيضاح الأحكام المتعلقة بها.

وقد ولد أبو حنيفة في مدينة الكوفة - وقيل في الأنبار - سنة ثمانين للهجرة، ويُروى أنه عربي الأصل، لكن المشهور أن أبا حنيفة من أصل فارسي. وانصرف في أول أمره إلى الاشتغال بالتجارة وحدها، ثم اشتغل معها بالعلم وظلّ يتاجر طيلة حياته، وكان يتاجر في الخز(١) واستطاع أبو حنيفة أن يحسن الجمع بين التجارة والعلم.

(١) الخز: نوع من الثياب.

عاش أبو حنيفة في عهد الأمويين، وفي عهد العباسيين، ولكن هواه كان مع العلويين، وكان غير راضٍ عن حكم الأمويين، وكان يستجيز الخروج عليهم، ولكنه لم يشارك في هذا الخروج.

وكان يرى أن خروج زيد بن علي بن زين العابدين على هشام بن عبد الملك عام ١٢١هـ خروج شرعي ينبغي أن يُعان فيه، وكان لزيد هذا مكانة عالية في نفس أبي حنيفة. كما كان لأبي حنيفة صلة بجعفر الصادق ومحمد الباقر وغيرهما من العلويين. ولقد حدث في عهد الأمويين أن يزيد بن عمر بن هبيرة كان عاملاً على العراق من قبل مروان في عهد الدولة الأموية، وطلب من أبي حنيفة أن يلي له قضاء الكوفة، فرفض أبو حنيفة، فضربه يزيد مائة وعشرة أسواط، في كل يوم عشرة أسواط، ولم يرجع أبو حنيفة عن رفضه برغم ذلك، فخلى يزيد سبيله بعد حين!

ويروى أن يزيد في هذه الواقعة لم يطلب من أبي حنيفة تولي القضاء، وإنما طلب منه أن يتولى بيت المال فأبى!

فضربوه على رأسه ضرباً موجعاً، ولما أطلقوا سراحه لم يشكُ الحبس ولا الضرب، بل قال: «كان غم والدتي أشد عليّ من الضرب». ويظهر أن الضرب كان شديداً، لأن الإمام أحمد بن حنبل كان إذا ذكروا ذلك أمامه بكى وترحم على أبي حنيفة.

ولما خلوا سبيله بعد تعذيبه لم يأمن على نفسه منهم، ففرّ هارباً إلى مكة، وعكف بجوار الكعبة يدرس الحديث والفقه، والتقى تلاميذه هناك، ومكث في مكة قرابة ست سنوات.

وجاءت الدولة العباسية، أحسّ أبو جعفر المنصور - الخليفة العباسي الأول - أن هوى أبي حنيفة ليس معه، فجعل يستدرجه ليستخرج خبيئة نفسه، وليصرّح عن ذات قلبه ومواقفه السياسية. وكان أبو حنيفة ينفث عن حقيقة رأيه من حين لحين بالتعليق خلال الدروس أحياناً، وبنقده أعمال القضاء أحياناً، وبرفضه العمل للدولة أحياناً أخرى، وأوغر هذا كله صدر المنصور فتربّص لأبي حنيفة وأوقع به بعد أن أحضره من الكوفة إلى بغداد.

ولكن كيف أوقع به؟ طلب أبو جعفر من أبي حنيفة أن يلي القضاء فرفض، فحلف عليه المنصور أن يفعل، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل! وكان الربيع حاجب المنصور حاضراً فقال لأبي حنيفة: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف وتحلف؟ فردّ أبو حنيفة بقوله: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني.

وأصرّ أبو حنيفة على الرفض، فحبسه المنصور إلى أجل غير مسمى.

ثم دعاه بعد ذلك وعرض عليه القضاء مرة أخرى، فقال له أبو حنيفة: أنا لا أصلح للقضاء. فقال له المنصور: كذبت! فتعلق أبو حنيفة بهذه الكلمات وقال: قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء، لأنه ينسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذباً فلا أصلح (لأن الكاذب لا يصلح لأن يكون قاضياً) وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح!

ومع أن هذا الجواب كان مفحماً أعاده المنصور إلى الحبس، ثم أخرجه من الحبس مرات وتوعّده، وهو يقول للخليفة: يا منصور،

اتق الله، ولا تول إلاّ من يخاف الله تعالى، والله ما أنا مأمون في الرضا، فكيف أكون مأموناً في الغضب.

والحقيقة أن المنصور اتخذ رفض أبي حنيفة لتولي القضاء، حجّة للتخلّص منه. وهذا هو السبب وراء إصرار المنصور على تعاون أبي حنيفة مع الدولة. وروى البعض أن بعض أعداء أبي حنيفة دسّ إلى المنصور أن أبا حنيفة هو الذي أثار عليه إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي، الخارج عليه بالبصرة، فخاف خوفاً شديداً، ولم يقرّ له قراراً، وأنه قوّاه بمال كثير، فخشي المنصور من ميله إلى إبراهيم لأن أبا حنيفة كان وجيهاً ذا مال واسع من التجارة التي ظلّ متمسكاً بالعمل بها حتى تغنيه عن الوقوف بباب السلاطين، فطلبه المنصور إلى بغداد ولم يجسر على اغتياله بغير سبب، فطلب منه تولي القضاء مع علمه بأنه لن يقبل.

يقول الذهبي في العبر: وقد روي أن المنصور سقاه السم فمات شهيداً.

وقال الهيثمي: روى جماعة أنه رفع إليه قدح فيه سم ليشرب فامتنع وقال: إني لأعلم ما فيه، ولا أعين على قتل نفسي، فطرح أرضاً ثم صُبَّ السم في فمه - قهراً وغصباً - فمات. واتفقوا على أنه رحمة الله عليه اغتيل سنة ١٥٠هـ وعمره سبعين سنة. وقال كثيرون: وكان موته في رجب، وقيل شعبان، وقيل نصف شوال. ولم يترك وراءه غير ولد واحد هو حماد. وهكذا دفع «إمام أهل الرأي» حياته دفاعاً عن رأيه ومواقفه!

وينبغي أن نعلم أن أبا حنيفة لم يؤلف في مذهبه كتباً، ومع ذلك شاع هذا المذهب وذاع، لأن تلاميذه - وفي طليعتهم أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيبان - ألّفوا الكتب في المذهب ثم أفاد أبو يوسف ومحمد مذهب شيخهما بأمر آخر، وهو دعمهما له بالأحاديث النبوية، وقد تيسر لهما هذا من اتصالهما أيضاً بفقه أهل المدينة القائم على السُّنّة.

وكان هناك أيضاً أبو عبدالله محمد بن شجاع الثلجي المتوفى سنة ٢٥٦هـ وهو الذي قال عنه ابن النديم في كتابه «الفهرست» إنه «الذي فتق فقه أبي حنيفة، واحتج له، وأظهر علله، وقوّاه بالحديث وحلاّه في الصدور».

اغتيال النسائي

أما أبو عبد الرحمن النسائي صاحب السنن فقد اغتيل في دمشق على يد بعض أعوان وأتباع الأمويين. وهو أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي، والنسائي نسبة إلى «نَسَأ» وهي بلدة بخراسان. ولد فيها عام ٢١٥هـ.

يقول الذهبي: وكان النسائي نضر الوجه مع كبر السن، يؤثر لباس البرود النوبية، والخضر، ويكثر الاستمتاع، له أربع زوجات، فكان يقسم لهن، وكان يكثر أكل الديوك تشترى له وتسمَّن وتخصى. وكان شيخاً مهيباً، مليح الوجه، ظاهر الدم، حسن الشيبة.

ويقول الحاكم أبو عبدالله الحافظ: سمعت أبا علي الحافظ يقول: رأيت من أئمة الحديث أربعة في وطني وأسفاري اثنان منهم بنيسابور: محمد بن إسحاق، وإبراهيم بن أبي طالب، وأبو عبد الرحمن النسائي بمصر، وعبدان بالأهواز.

ويضيف: سمعت مشايخنا بمصر يعترفون لأبي عبد الرحمن النسائي بالتقدم، والإمامة، ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنهار، ومواظبته على الحج والاجتهاد، وأنه خرج إلى الغداء مع

والي مصر، فوصف من شهامته وإقامته السنن المأثورة في فداء المسلمين والمشركين واحترازه عن مجالسة السلطان الذي خرج معه والانبساط بالمأكول والمشروب في رحلاته، وأنه لم يزل ذلك دأبه إلى أن استشهد - رحمه الله - بدمشق من جهة الخوارج.

ويقول ابن الأثير: كان - النَّسائي - شافعياً له مناسك على مذهب الشافعي، وكان ورعاً متحرياً، قيل: إنه أتى الحارث بن مسكين في زي أنكره، عليه قلنسوة وقباء، وكان الحارث خائفاً من أمور تتعلق بالسلطان، فخاف أن يكون عيناً عليه فمنعه، فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع، ولذلك ما قال حدثنا الحارث، وإنما يقول: قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع.

وقد قيل عنه: الذين أخرجوا الصحيح، وميَّزوا الثابت من المعلول والخطأ من الصواب أربعة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأبو عبد الرحمن النسائي.

وكانت كتب النَّسائي وشروحه وتراجمه أهم أسباب اغتياله يقول الوزير ابن حنزابة: سمعت محمد بن موسى المأموني صاحب النَّسائي قال: سمعت قوماً ينكرون على أبي عبد الرحمن النسائي كتاب «الخصائص» لعلي رضي الله عنه وتركه تصنيف فضائل الشيخين، فذكرت له ذلك فقال: دخلت دمشق والمنحرف بها عن علي كثير، فصنفت كتاب «الخصائص» ورجوت أن يهديهم الله تعالى، ثم إنه صنف بعد ذلك فضائل الصحابة، فقيل له وأنا أسمع: ألا تخرج فضائل معاوية؟ فقال: أي شيء أُخرّج؟ حديث «اللّهم لا تُشبع بطنه!» فسكت السائل.

وأشهر كتب النسّائي هي «السنن الكبرى» و«والمجتبى» وتفسير النَّسائي. وله كتب أخرى مثل الضعفاء والمتروكين وتسمية فقهاء الأمصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من أهل المدينة، و«تسمية من لم يرو عنه غير رجل واحد».

وكان النسائي قد خرج من مصر التي كان يقيم فيها، في آخر حياته إلى دمشق، فسئل بها عن معاوية وما جاء في فضائله، فقال: لا يرض رأس برأس حتى يفضل؟ أي إنه لا يجوز المقارنة بينهما لأن علياً هو الأفضل - فأخرجوه من المسجد وضربوه، وما زالوا يتابعونه بعد ذلك حتى مات. ويقول الذهبي فما زالوا يدفعونه في حضنيه حتى أخرج من المسجد، ثم حُمل إلى مكة فتوفي بها.

قال الدارقطني: خرج حاجّاً، فامتحن بدمشق، وأدرك الشهادة فقال احملوني إلى مكة فحمل فتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة، وكان أفقه مشايخ مصر في مصر وأعلمهم بالحديث والرجال.

اغتيال أم ورقة الشهيدة

وقد تنبأ رسول الله بشهادة أم ورقة وموتها غيلة. فقد أخرج أبو داود في سننه عن أم ورقة بنت نوفل - هي أم ورقة بنت عبدالله ابن الحارث بن عويمر بن نوفل الأنصارية - أن النبي لما غزا بدراً قلت له: يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك أُمرِّض مرضاكم لعل الله أن يرزقني شهادة فقال النبي: قرّي في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة فكانت تسمى الشهيدة.

وقد تحقق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله سبحانه وتعالى رزقها الشهادة وهي في بيتها وذلك في زمن خلافة عمر رضي الله عنه، حيث كانت قد دبّرت غلاماً وجارية[1]، فتطاولا عليها في الليل وخنقاها بقطيفة حتى ماتت ثم هربا، فلما بلغ ذلك عمر رضي الله عنه قال: انطلقوا نزور الشهيدة، ثم أعلن في الناس أن فلاناً وفلانة عبدي أم ورقة غماها وهربا فلا يؤويهما أحد ومن وجدهما فيأت بهما. فأتي بهما فصلبا فكانا أول مصلوبين في الإسلام.

(١) التدبير هو تعليق عتق العبد على موت السيد، ودبّرت غلاماً وجارية أي علّقت عتقهما بموتها.

اغتيال عبد الرحمن بن عُديس

يقول الذهبي في ترجمته: أبو محمد البلوي، له صحبة، وبايع تحت الشجرة في بيعة العقبة، وله رواية - أحاديث - سكن مصر وكان ممن خرج على عثمان وسار إلى قتاله. ثم ظفر به معاوية فسجنه بفلسطين مع جماعة آخرين، ثم هرب من السجن، فعرفوا مكانه وأرسلوا خلفه من يقتله. ولما أدركه القاتل قال عبد الرحمن بن عُديس للقاتل ويحك اتق الله في دمي، فإني من أصحاب الشجرة. فقال القاتل: الشجر بالجبل كثير وقتله.

وقال ابن يونس: كان رئيس الخيل التي سارت من مصر إلى عثمان. وهو رأس الفتنة!

اغتيال الجرّاح بن عبدالله

إنه الأمير أبو عقبة، له ترجمة طويلة في تاريخ ابن عساكر. وقد تولى البصرة في دولة الوليد، من تحت يد الحجاج، ثم ولي خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز. وكان من صلحاء الأمراء ومجاهديهم.

يقول الجراح بن عبدالله الحكمي وكان فارس أهل الشام: تركت الذنوب حياء أربعين سنة، ثم أدركني الورع.

وقال البخاري: ولي الجراح خراسان ليزيد بن المهلب، وهو من سعد العشيرة، فروى الوليد بن مسلم أن الجراح كان إذا مشى في جامع دمشق يميل رأسه عن القناديل من طوله. وروى عبد الرحمن بن الحسن الزرقي عن أبيه قال: كان الجراح بن عبدالله على خراسان كلها، حربها وصلاتها ومالها. قال ابن جابر وفي سنة اثنتي عشرة ومئة غزا الجراح بلاد الترك، فدخل، ثم رجع، فأدركته الترك، فقتل هو وأصحابه، أرسلوا خلفه من قتله.

وقال أبو سفيان الحميري: كان الجراح على أرمينية، وكان رجلاً صالحاً، فقتله رجل من الخزر، ففزع الناس لقتله في البلدان.

اغتيال الجعد بن درهم

إنه مؤدب مروان بن محمد الحمار، ولهذا يقال له: مروان الجعدي. كان الجعد أول من تفوّه بأن الله لا يتكلم، وقد هرب من الشام. ويقال إن الجهم بن صفوان أخذ عنه مقالة خلق القرآن، وأصله من حران. وقد وقف الجهد على وهب بن منبه، فجعل يسأله عن الصفة، فقال: يا جعد ويلك، أنقص من المسألة، إني لأظنك من الهالكين لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً، ما قلنا ذلك، وأن له عيناً ما قلنا ذلك، ثم لم يلبث الجعد أن ذبح.

ويروى أن خالد بن عبدالله القسري خطب الناس يوم الأضحى بواسط وقال: ضحوا يقبل الله ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه.

اغتيال خارجة بن حذافة

أما خارجة بن حذافة فقد شهد فتح مصر، وكان أمير ربع المدد الذين أمد بهم عمر بن الخطاب عمرو بن العاص، وكان رئيساً لشرطة مصر في خلافة عمر، وفي خلافة معاوية. وقد تآمر الخوارج بأن يقتلوا الثلاثة الذين يظنونهم سبب الفتنة، وهم علي بن أبي طالب الذي قتله عبد الرحمن بن ملجم، ومعاوية الذي أصيب بجراح طفيفة، وعمرو بن العاص الذي نجا من الموت عندما أصيب بوعكة صحية، فأناب عنه رئيس شرطته خارجة بن حذافة، فقتله عمرو بن بكير وهو يعتقد أنه عمرو بن العاص.

اغتيال عمرو بن عتبة

أما التابعي عمرو بن عُتبة فيقولون إنه كان يرعى ركاب أصحابه وغمامة تظله والسبع يضرب بذنبه يحميه.

وقال عتبة: يا عبدالله ألا تعينني على ابني، فقال عبدالله: أطع أباك. فقال: يا أبه، إنما أنا رجل أعمل في فكاك رقبتي فدعني. فبكى أبوه ثم قال: يا بني إني لأحبك حبين، حباً لله، وحب الوالد لولده، قال: يا أبه إنك كنت أتيتني بمال بلغ سبعين ألفاً، فإن أذنت لي أمضيته. قال: قد أذنت لك، فأمضاه حتى ما بقي منه درهم.

وعن أحمد بن يونس اليربوعي، قال: قام عمرو بن عتبة يصلي، فقرأ حتى بلغ ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾(١). فبكى حتى انقطع، ثم قعد، فعل ذلك حتى أصبح.

وروى عبدالله بن المبارك قال: كان عمرو بن عتبة بن فرقد يخرج على فرسه ليلاً، فيقف على القبور، فيقول: يا أهل القبور قد طويت الصحف، وقد رُفعت الأعمال، ثم يبكي ويصّف قدميه حتى يصبح فيرجع فيشهد صلاة الصبح.

وعن بعض التابعين قال: كان عمرو بن عتبة يفطر على رغيف ويتسحر برغيف.

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

وكان عمرو بن عتبة بن فرقد يقول: سألت الله ثلاثاً فأعطاني اثنتين وأنا أنتظر الثالثة: سألته أن يُزهِّدني في الدنيا فما أبالي ما أقبل وما أدبر، وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها.

وقد استجاب الله له فرزقه الشهادة، فعن علقمة قال: خرجنا ومعنا مسروق، وعمرو بن عتبة، ومعضد العجلي غازين، فلما بلغنا ماسبذان، قال لنا ابنه عمرو: إنكم إن نزلتم عليه صنع لكم نُزُلاً، ولعل أن تظلموا فيه أحداً، ولكن إن شئتم قِلْنا في ظل هذه الشجرة وأكلنا من كسرنا، ثم رحنا، ففعلنا، فلما قدمنا الأرض قطع عمرو بن عتبة جبة بيضاء فلبسها فقال والله إن تحدر الدم على هذه لحسن. ثم رُمي غيلة، فرأيت الدم ينحدر على المكان الذي وضع يده عليه، فمات رحمه الله.

وقال هشام الدستوائي: لما قتل عمرو بن عتبة دخل بعض أصحابه على أخته فقال: أخبرينا عنه، فقالت: قام ذات ليلة فاستفتح سورة (حمَ) فلما بلغ هذه الآية ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾[1]، فما جاوزها حتى الصباح.

أما أبوه عُتبة بن فرقد فمن أشراف بني سليم، شهد فتح خيبر، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم، وولي إمارة الموصل لعمر بن الخطاب، وله بها مسجد معروف ودار.

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

اغتيال عبدالله بن قرط

وقد اغتال الروم عبدالله بن قرط الذي كان والياً على حمص لأبي عبيدة وقيل: بل وليها لمعاوية. وله صُحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم، حيث روى أحاديث في فضل يوم النحر وعن خالد بن الوليد.

وكان اسمه شيطان بن قرط فجاء إلى النبي فسأله: «ما اسمك» قال «شيطان بن قرط» قال النبي: أنت عبدالله.

وعن جنادة بن مروان: أن عبدالله بن قُرط والي حمص خرج يحرس ليلة على شاطئ البحر فلقيه فاتور الروم من الخلف فقتله بين بلنياس ومرقية. ويقال إنه استشهد سنة ٥٦هـ.

اغتيال مسلم بن عقيل

أرسل الحسين بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمه مسلم بن عقيل إلى أهل الكوفة يمهد له طريق البيعة بين الكوفيين الذين أرسلوا اليه يقولون إن هنالك مائة ألف ينصرونك، وألحوا في الكتابة يستعجلونه الظهور.

فكتب الحسين إليهم كتاباً يقول فيه: «أما بعد، فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم، وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله فلعمري ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله، والسلام».

ونزل مسلم بن عقيل إلى الكوفة، فأقبل عليه الناس ألوفاً ألوفاً يبايعون الحسين على يديه، وبلغوا ثمانية عشر ألفاً في تقدير ابن كثير، وثلاثين ألفاً في تقدير ابن قتيبة. وهال الأمر النعمان بن بشير - والي الكوفة - فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم

يزدادون يوماً بعد يوم، فصعد المنبر وخطب الناس معلناً أنه لا يقاتل إلاّ من قاتله، ولا يثب إلاّ إلى من وثب عليه.

وتسابق أنصار بني أمية إلى يزيد بن معاوية ينقلون إليه ما يجري بالكوفة، فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولي الكوفة عبيدالله بن زياد، مضمومة إلى البصرة التي كان يتولاها في ذلك الحين.

وقدم عبيدالله إلى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع إليه عرفاء المدينة - أي مشايخ أحيائها - فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن في أحيائهم من «طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب» وأنذرهم «أيما عريف وُجِدَ في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إليه، صلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء».

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يسترضيهم ويستخرج خفاياهم، فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانئ بن عروة، فقيل له إنه مريض لا يبرح داره.. وكان يتعلل بالمرض تجنباً للقائه والسلام عليه.

فذهب عبيدالله إليه يعوده ويتلطف إليه، وجاء في بعض الروايات أنه أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو في بيت هانئ فأبى أن يغتاله وقال «إنا أهل بيت نكره الغدر».

وقال ابن كثير ما معناه أنهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتل عبيدالله بن زياد وهو في دار شريك بن الأعور، وقد علم شريك أن عبيدالله سيزوره، فبعث إلى هانئ بن عروة يقول له: «ابعث

مسلم بن عقيل من داري ليقتل عبيدالله إذا جاء يعودني» فرفض مسلم قتله، وسأله شريك: ما منعك أن تقتله؟ قال: بلغني حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الإيمان ضد الفتك، لا يفتك مؤمن» وكرهت أن أقتله في بيتك.

قال شريك: «أما لو قتلته لجلس في الثغر لم يستعد به أحد، وليكفينك أمر البصرة، ولكنت تقتله ظالماً فاجراً».

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام.

وتضطرب الأقاويل - حسب وصف العقاد - من وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها، ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيدالله بن زياد في مغالبة مسلم وشيعته، وأنه هرب مرة من المسجد لأن الناس رأوا مسلماً مقبلاً فتصايحوا بعبيدالله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه. واجتمع لنصرة مسلم أكثر من أربعة آلاف من حزبه، ثم تقدم إلى قصر الإمارة في تعبئة كتعبئة الجيش. ولم يكن في القصر إلاّ ثلاثون رجلاً من الشرطة وعشرون من أهل الكوفة. فتسلل اليأس إلى عبيدالله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه، ولكنه احتال بكل الطرق، فأرسل أنصاره إلى كل صوب في المدينة يعدون ويتوعدون، وانطلق هؤلاء الأنصار يشيعون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البريء بالمذنب والغائب بالشاهد، ويبذلون المال لمن يُرشى بالمال، والوعد لمن يقنع بالوعد إلى حين.

ولم تغرب شمس ذلك اليوم، حتى نظر مسلم حوله فإذا خمسمائة فقط من أولئك الآلاف الأربعة.. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه في الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام، وبقي مسلم وحيداً في المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوي إليه.

وسمع عبيدالله بن زياد بما حدث فقال في المسجد «برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره». وما هي إلاّ سويعات حتى جيء بمسلم بن عقيل جريحاً مجهداً ظمآن، فأهوى إلى قُلة عند الماء فيها ماء بارد، فقال له أحد أصحاب عبيدالله «أتراها ما أبردها! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم».

وأنكر البعض هذه الفظاعة من الرجل فجاء بقُلة وقدح فصب منها في القدح وأدناه منه، فإذا هو ينفث الدم في القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه، فحمد الله وقال «لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته».

ثم دعا عبيدالله بن زياد الرجل الذي قاومه مسلم وضربه على رأسه وقال له: لتكن أنت الذي تضرب عنقه.

فصعد به إلى أعلى القصر، وأشرف به على الجموع المحيطة، فضرب رأسه التي سقطت إلى الرحبة، وألقيت جثته إلى الناس، وأُرسل رأسه إلى يزيد.

اغتيال الضحاك بن قيس القرشي الفهري

بعد صراع مرير، قتل الضحاك بن قيس القرشي الفهري، أخو فاطمة بنت قيس، وكانت أكبر منه بعشر سنين. شهد الضحاك فتح دمشق وسكنها، وكان أميراً على عسكر أهل دمشق يوم صفين.

وفي مسند أحمد أن الضحاك بن قيس كتب إلى قيس بن الهيثم حين مات يزيد: سلام عليك، أما بعد. فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الدخان، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه» وإن يزيد بن معاوية قد مات، وأنتم إخواننا وأشقاؤنا، فلا تسبقونا بشيء، حتى نختار لأنفسنا.

وكان الضحاك بن قيس مع معاوية، فولاّه الكوفة، وهو الذي صلى على معاوية وقام بخلافته حتى قدم يزيد، وكان - بعد موت يزيد - قد دعا إلى ابن الزبير وبايع له، ثم دعا لنفسه، وفي بيت أخته اجتمع أهل الشورى، وكانت نبيلة، وهي راوية حديث الجسّاسة.

وقال ابن سعد: إن معاوية بن يزيد لما مات دعا النعمان بن بشير بحمص إلى ابن الزبير، ودعا زُفر بن الحارث أمير قنسرين

إلى ابن الزبير، ودعا الضحاك بدمشق إلى ابن الزبير سراً لمكان بني أمية وبني كلب، وبلغ حسان بن مالك بن بحدل وهو بفلسطين، وكان هواه في خالد بن يزيد، فكتب إلى الضحاك كتاباً يعظم فيه حق بني أمية ويذم ابن الزبير، وقال للرسول إن قرأ الكتاب، وإلا فاقرأه أنت على الناس، وكتب إلى بني أمية يعلمهم، فلم يقرأ الضحاك كتابه، ودخل داره، فمكثوا أياماً، ثم خرج الضحاك فصلى بالناس، وذكر يزيد فشتمه، فقام إليه رجل من كلب فضربه بعصا، فاقتتل الناس بالسيوف، ودخل الضحاك داره، وافترق الناس ثلاث فرق، فرقة زبيرية، وفرقة بحدلية هواهم في بني أمية، وفرقة لا يبالون، وأرادوا أن يبايعوا الوليد بن عقبة بن أبي سفيان، فأبى وهلك تلك الليالي، فأرسل الضحاك إلى مروان، فأتاه هو وعمرو ابن سعيد الأشدق، وخالد، وعبدالله ابنا يزيد، فاعتذر إليهم وقال: اكتبوا إلى حسان، حتى ينزل الجابية، نسير إليه، فنستخلف أحدكم، فكتبوا إلى حسان، فأتى الجابية، وخرج الضحاك وبنو أمية يريدون الجابية، فلما استقلت الرايات موجهة قال معن بن ثور ومن معه من اشراف قيس للضحاك: دعوتنا إلى بيعة رجل أحزم الناس رأياً وفضلاً وبأساً، فلما أجبناك خرجت إلى هذا الأعرابي تبايع لابن أخيه؟ قال: فما العمل؟ قالوا: تصرف الرايات، وتنزل فتظهر البيعة لابن الزبير، ففعل وتبعه الناس، وبلغ ابن الزبير، فكتب للضحاك بإمرة الشام، ونفى من بمكة والمدينة من الأمويين، فكتب الضحاك إلى الأمراء الذين دعوا إلى ابن الزبير فأتوه، فلما رأى مروان ذلك سار يريد ابن الزبير ليبايع له ويأخذ الأمان لبني أمية،

فلقيهم بأذرعات عبيدالله بن زياد مقبلاً من العراق، فحدثوه فقال لمروان: سبحان الله، أرضيت لنفسك بهذا، أتبايع لأبي خبيب وأنت سيد قريش وشيخ بني عبد مناف! والله لأنت أولى بها منه. قال: فما ترى؟ قال: الرأي أن ترجع وتدعو إلى نفسك، وأنا أكفيك قريشاً ومواليها، فرجع ونزل عبيدالله بباب الفراديس، فكان يذهب إلى الضحاك كل يوم، فعرض له رجل فطعنه بحربة في ظهره، وعليه من تحت الدروع، فانثنت الحربة، فرجع عبيدالله إلى منزله، فأتاه الضحاك يعتذر، وأتاه بالرجل فعفا عنه، وعاد يركب إلى الضحاك، فقال له يوماً: يا أبا أنيس، العجب لك، وأنت شيخ قريش، تدعو لابن الزبير وأنت أرضى عند الناس منه، لأنك لم تزل متمسكاً بالطاعة، وابن الزبير مشاق مفارق للجماعة! فأصغى إليه ودعا إلى نفسه ثلاثة أيام، فقالوا: قد أخذت عهودنا وبيعتنا لرجل، ثم تدعو إلى خلعه من غير حدث أحدث! ورفضوا مبايعته، فعاد إلى الدعاء لابن الزبير، فأفسده ذلك عند الناس، فقال عبيدالله بن زياد: من أراد ما تريد لم ينزل المدائن والحصون، بل يبرز ويجمع إليه الخيل فاخرج عن دمشق وضم إليك الأجناد، فخرج ونزل بالمرج. وبقي ابن زياد بدمشق، وكان مروان وبنو أمية بتدمر، وابنا يزيد بالجابية عند حسان، فكتب عبيدالله إلى مروان: ادع الناس إلى بيعتك، ثم سِرْ إلى الضحاك بن قيس، فقد أصحر لك[1]، فبايع مروان بنو أمية، وتزوج بأم خالد بن يزيد بن معاوية، واجتمع خلق

(١) أصحر لك: تجهز لك بالصحراء.

كثير على بيعة مروان، وخرج ابن زياد فنزل بطرف المرج، وسار إليه مروان في خمسة آلاف، وأقبل من «حوارين» عباد بن زياد في ألفين من مواليه، وكان بدمشق يزيد بن أبي النمس فأخرج عامل الضحاك منها، وأمر مروان بسلاح ورجال فانضم إلى الضحاك زفر بن الحارث الكلابي من قنسرين، وأمدّه النعمان بن بشير بشرحبيل بن ذي الكلاع من أهل حمص، فسار مع الضحاك ثلاثين ألفاً، ومروان في ثلاثة عشر ألفاً، فأقاموا بالمرج عشرين يوماً يلتقون في كل يوم، وكان على ميمنة مروان عبيدالله بن زياد، وعلى ميسرته عمرو بن سعيد الأشدق، فقال عبيدالله: إننا لا ننال من الضحاك إلاّ بمكيدة، فادع إلى الموادعة[1] فإذا أمنوا فكرّ عليهم، فراسله مروان، فتوقف الضحاك والقيسية عن القتال، وهم يطمعون أن مروان يبايع لابن الزبير، فأرسل مروان أحد أصحابه، فتسلل، وطعن الضحاك بن قيس فصرعه، واندلعت الحرب بين الطرفين، وانتصر مروان، فحملوا رأس الضحاك إلى مروان فأمر للقاتل بجائزة.

(١) الموادعة: الهدنة.

اغتيال عمر بن سعد

أما عمر بن سعد بن أبي وقاص فقد عاش المحنة كاملة وغاص فيها حتى الغرق، وسجل اسمه بحروف من دماء حيث كان أحد قتلة الحسين رضي الله عنه.

ويذكر الذهبي: قال بكير بن مسمار: سمعت عامر بن سعد يقول: كان سعد بن أبي وقاص يرعى إبله أو غنمه، فأتاه ابنه عمر، فلما لاح قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه قال: يا أبت أرضيت أن تكون اعرابياً في إبلك والناس يتنازعون في الملك! فضرب صدره بيده وقال: اسكت، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يحب العبد التقي الخفي الغني».

وذات مرة قبل أن تندلع الفتنة بينهما قال عمر بن سعد للحسين: إن قوماً من السفهاء يزعمون أني قاتلك. قال الحسين: ليسوا بسفهاء ولكنهم حلماء، ثم قال: والله إنه ليقر عيني أنك لا تأكل بُر العراق بعدي إلاّ قليلاً.

كان «الديلم» قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على «سبتى» بأرض همذان، فجمع لهم عبيدالله بن زياد جيشاً عدّته

أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي يذكر الديلم اسم أبيه - سعد، فاتح بلادهم، وقد وعد بولاية الري بعد قمع الثورة الديلمية، فلما قدم الحسين إلى العراق قال عبيدالله لعمر: نفرغ من الحسين ثم تسير إلى عملك. فاستعفاه[1]، وعلم عبيدالله موطن هواه فقال له: نعم نعفيك على أن ترد إلينا عهدنا.

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه، فنصح له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة - وهو من أكبر أعوان معاوية - ألا يقبل مقاتلة الحسين وقال له: والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك، خير من أن تلقى الله بدم الحسين.

لكن عمر بن سعد، قبل كارهاً للمهمة، وسار على مضض وجنوده متثاقلون متحرجون، إلاّ المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق. وكان الجنود يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة، فأمر عبيدالله رجلاً من أعوانه - هو سعد بن عبد الرحمن المنقري - ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين، وضرب عنق رجل جيء به وقيل إنه من المتخلفين، فأسرع بقيتهم إلى المسير.

وتلقى عبيدالله بن زياد من عمر بن سعد رسالة تقول «أما بعد، فإن الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأمة، فهذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى، أو أن يأتي أمير المؤمنين فيضع يده في يده، أو أن يسير إلى ثغر من الثغور، فيكون رجلاً من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم».

(١) استعفاه: طلب أن يعفيه من تلك المهمة.

والواضح أن عمر بن سعد قد نقل كلاماً لم يقله الحسين، لأن معظم أصحاب الحسين أكدوا أنه قال لعمر «دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس».

لكن عمر بن سعد نقل هذا الكلام كي يأذنوا له في حمل الحسين إلى يزيد فيلقي عن كاهله مقاتلته وما تجر إليه من وخز الضمير وسوء المقالة.

فلما قرأ عبيدالله الرسالة قال: هذا كتاب ناصح لأميره، مشفق على قومه، نعم قد قبلت، فقام إليه شِمْر بن ذي الجوشن فقال: أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة، وإن عفوت كان لك والله لقد بلغني أن الحسين وعمر بن سعد يجلسان بين المعسكرين فيتحدثان عامة الليل.

فقال عبيدالله بن زياد: نعم ما رأيت الرأي رأيك. وأرسل شِمْر ابن ذي الجوشن إلى خط المواجهة مع الحسين، وأمره أن يضرب عنق عمر بن سعد إن تردد في قتال الحسين.

واندلعت المعركة، وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات باستشهاد الحسين رضي الله عنه هو وكل من معه.

ولكن لم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه في كربلاء، فلم يكد يسلم أحد منهم من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير.

كان عمر بن سعد بن أبي وقاص نائماً في فراشه، فدخل عليه أحد طالبي ثأر الحسين فقتله وحمل رأسه فرآها حفص بن عمر في يد القاتل فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! فضرب عنقه وحمل رأس الأب ورأس الابن وقال: عمر بالحسين، وحفص بعلي بن الحسين!!